في ظلال الزيتونة ١٠

رواية



الطبعة العاشرة

وسلامة البكاء

كمال السيد


بسم الله الرحمن الرحيم

وسلاحه البكاء

© جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة العاشرة

1446 - 2025

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

+989365620988 kamal.alsayeed
kamalalsayedd kamalalsayeed
kamalalsayed kamalalsayed.net
kaleemat.pub@gmail.com

ميداد
للثقافة والإعلام
MIDAD cultural coordination
Bahrain - Jidhafs / AlHashimi Complex
+973-36671135 midad_bh
midadbh@gmail.com

توزيع

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah
العنوان: لبنان – بيروت – سان تيريز – سنتر يحفوفي – بلوك c – ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ – email: almaaref@shurouk.org

اسم الكتاب: وسلاحه البكاء

تأليف: كمال السيد

الطبعة: العاشرة، ٢٠٢٥م

إعداد ونشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر- مداد للثقافة والإعلام

البريد الإلكتروني: kaleemat.pub@gmail.com

جميع حقوق الطبع محفوظة لدى مؤسسة كلمات للطباعة والنشر

ISBN 978-614-440-308-2

kamal.alsayeed

كلمات

الموقع الرسمي

[١]

لاحت من بعيد «ثنيّات الوداع»، والقافلة المحمّلة بكنوز كسرى تشقّ طريقها بجلال تحرسها خيول ودروع.

كانت الشمس قد بزغت كأنّها تستقبل العائدين، أو لترى فتاة حملتها الأقدار من أرض النار، كانت تمعن في الفرار ولكن دون جدوى.

اقترب صحابيٌّ أراد أن يحادثها ... أن يقول لها كان سلمان يعيش في المدينة وكان رجلًا من أهل البيت، كان يعيش في أرضكم، ولكنّه جاء يبحث عن النور ففرّ من النار.

تمتم أسفًا وودّ لو كان سلمان حاضرًا، تمنّى لو أنّه قد تعلّم منه لغة أهل تلك الديار.

هبّت نسائم طيِّبة، فتذكّر حادثة قديمة لن ينساها يوم

وصل رسول السماء إلى أرض طيبة فصدحت الفتيات يغنِّين للبدر الذي أشرق في سماء المدينة.

حانت منه التفاتة فألفى بنت كسرى حزينة لكأنّ وجهها المضيء تغمره غيوم وغيوم.

تساءل في سِرِّه: ترى ماذا سيكون مصيرها؟ إنّها سبيّة على كلّ حال. هذا هو منطق الحرب.

كان الموكب يقترب من المدينة. تمايلت سعفات النخيل، وهبّت نسائم طريّة مشبعة برائحة الخضار.

تذكّرت بنت آخر ملوك ساسان قصورها المنيفة، وتعجَّبت أن تكون هذه المدينة عاصمة الدولة التي لا تُقهر! كيف هزم هؤلاء الحُفاة العُراة جيوش كسرى حتّى لم يتركوا لـ «يزدجرد الثالث» مكانًا في خراسان ولا في نيسابور ولا سرخس ولا طوس، وها هي الأنباء تطير في الآفاق عن عبورهم «باب الأبواب» في بلاد الخزر، تأوّهت بحزن:

– آه بيروزباد هرمز.

المسجد يكتظُّ بالناس، وقد أشرفت عذارى المدينة

يتطلَّعن إلى ابنة الملوك، إلى جمال فارسيّ يختطف القلوب والأبصار.

كانت الفتاة تدرك ما سيحلّ بها، بعد قليل سوف تكون جارية في بيت طينيّ من بيوت المدينة. تجمّعت الدموع في عينيها كغيوم ممطرة، راحت تتصفّح الوجوه المحدِّقة بها ... التقت عيناها وجهًا أفترَّ عن ابتسامة أراد أن يبدّد عنها خوفًا غامضًا فقال:

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

- جه نام دارى أي كنيزك؟

دُهشت لهذا الرجل الذي يتحدّث بلغتها ...

غير مرخص للبيع أو الطباعة

أجابت باستحياء:

- شاه زنان.

أراد الرجل الذي يشبه الأسد أن يمنحها اسمًا جديدًا فقال:

- شهر بانو.

ابتسمت الفتاة وشكرت في أعماقها الرجل لهذه الهديَّة.

ما أجمله من لقب! ... سيّدة المدينة.

سأل الرجل، وقد أراد أن يكتشف ما تعلّمته من الزمان:

- هل حفظت عن أبيك شيئًا؟

أجابت بلوعة:

- كان يردّد قبل مصرعه: إذا غلب اللّه على أمر ذلّت المطامع دونه، وإذا انقضت المدّة كان الموت في الحيلة.

ابتسم الرجل الذي تنفجر الحكمة من جوانبه:

- ما أحسن ما قال أبوك! تذلّ الأمور للمقادير حتَّى يكون الحتف في التدبير.

ساد الصمت ووقفت الفتاة تنتظر النهاية مستسلمة، ها هي الأقدار ترسم الطريق من قمم الجبال الشاهقة إلى الهاوية! من المجد والملك إلى السبي والعبوديّة. كانت على وشك أن تُعرض في الأسواق بعد أن أمر الخليفة بذلك.

وقبل أن تخطو باتجاه النهاية ألقت نظرة رجاء على الرجل لعلّه يشتريها.

هتف الرجل معترضًا، رغم غضب الخليفة:

- لا يجوز بيع بنات الملوك.

تذكّر الصحابة كلمات قالها النبيّ يوم وقعت سفانة ابنة حاتم في الأسر: ارحموا عزيز قومٍ ذلّ.

لقد نسيها الجميع وها هو أخو النبيِّ يذكّرهم بعد تطاول الأيَّام.

- وما هو الحلّ إذًا؟! تساءلَ الخليفة حنقًا.

- أعرض عليها أن تختار رجلًا من المسلمين يتزوّجها ويحسب مهرها من عطائه.

تصاعدت صيحات الاستحسان من زوايا المسجد. كانوا بشوق إلى ملكة فارس، ترى مَنْ ستختار؟ إنّها على كلّ حال تمثل أُمّة كانت تحكم نصف العالم ذات يوم.

وراحت ابنة كسرى تبحث عن رجل تلوذ به، تتأمّل الوجوه تبحث عن الإنسان ... تبحث عمّن يهبها رحمة الأب ودفء الأمّ.

واستقرّت عيناها على شابّ أقنى الأنف كأنّ عينيه

نافذتان تطلّان على عوالم تزخر بالنور والصفاء والحرِّيَّة؛ فأشارت إليه.

هتف بعضهم إعجابًا:

- ما أحسن ما اختارت! وهل هناك من هو أشرف من سِبْطِ محمَّد وابن سيِّد العرب؟!

قال سيّد العرب لابنه وقد تذكّر نبوءةً سمِعها من رسول السماء:

- ليلدنَّ لك منها صبيٌّ هو خير أهل الأرض.

للطباعة والنشر
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٢]

كانت ترنو إلى وليدها بعينين مجهدتين، أضنتها آلام المخاض، ها هو يغفو إلى جانبها كقمر صغير، كوردة نسرين تتفتَّح للربيع.

كانت ترنو إليه بحزن. نداء ما يضجّ في أعماقها كأنّه يدعوها للرحيل. الرحيل إلى عوالم بعيدة.

فتح الصبيُّ عينيه كأنّه يبحث عن أُمّه؛ هزّ المهد بقدمه الصغيرة.

تجمّع خوف بريء في عينيه، وطافت وجهه المستدير غيمة حزينة وانبعث صراخ طفوليٌّ فيه نشيج الميازيب في مواسم المطر.

كان الصوت يخترق أُذنيها ... يدوّي في أعماقها يفجّر

ينبوع الأمومة ... ولكنّ الجسد الخائر لم يقو على الحراك، وقد أوشكت الروح على الرحيل، والصبيُّ يصرخ ويصرخ كأنّه يتشبّث بروح وهبته الروح.

تمتمت بأسى:

- ابكِ يا ولدي الحبيب.

ثمّ أغمضت عينيها الواهنتين لتغفو بسلام؛ فيما ظلّ الصبيُّ يبكي.

كانت السماء تسحّ مطرًا ناعمًا، وكأنَّ الغيوم تبكي بصمت، وامتزج بكاء الصغير مع نشيج الميازيب. لكأنّ الأقدار رسَمَتْ لهذا الصبيِّ طريقًا منقوعًا بالدموع مضمَّخًا بحزن سماويّ ورثه أجداده عن آدم يوم قُتِلَ هابيل.

وتمرّ السنون، والتاريخ يشعل الحوادث المدمّاة هنا وهناك.

تدفَّقت دماء جدّه في المحراب قانية تلوّن أُفق التاريخ، حتّى إذا مضت خمسون سنة على الهجرة أشعل التاريخ حادثة في منزل عمّه سبط النبيِّ وريحانته.

كان الحسن يتلوّى من الألم ... آلام رهيبة كخناجر تغوص في قلبه تمزّق كبده.

وقف عليٌّ إلى جانب أبيه يراقب عمّه بذهول.

هتف الحسين بمرارة:

ألا تخبرني بمن دسّ إليك السمّ؟

تمتم الحسن وكأنّه يحدّث نفسه:

لقد سقيت السمّ مرارًا فلم يفعل مثل هذه المرّة.

شعر بأنّ نارًا مجنونة تشعل الحرائق في أعماقه، ماذا يقول لأخيه؟ إنّه يعرف من دسّ السمّ، هناك في بلاد الشام رجل من طلقاء جدّه يخلط السم بالعسل ... سلاح جديد يستخدمه منذ سنين بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

رجل تحوطه سيوف وقلاع؛ وما «جعدة» إلّا ضحيّة مرض وبيل، عقدة ورّثها قابيل أبناءه.

وأغمض الحسن عينيه ليفتحهما في عالم آخر ... عالم مليء بالمسرّات الخالدة.

ومضى التاريخ يشعل الحوادث، مات «ابن كلدة» طبيب

العرب وكان قد أخذ الطبّ عن أهل فارس، وماتت عفراء وكانت من أهل البادية يتغنَّون بقصّة حبّها العذريِّ لابن حزام؛ وماتت ميمونة وكانت امرأة وهبت نفسها للنبيّ.

مضى التاريخ يشعل الحوادث، ارتفعت في سماء «الفسطاط» بمصر أوّل منارة في الإسلام والجيوش الاسلاميّة تدقّ بعنف أبواب القسطنطينيّة واستشهد أبو أيُّوب فدفن تحت أسوارها.

ومات سعد آخر المهاجرين وترك بقصره «العقيق» ذهبًا وفضَّة وابنًا سيسلُّ سيفه لمحو التاريخ الهجريّ.

للطباعة والنشر
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣]

دار الزمن دورته وأطلّ عام ستين، عام فيه يُضام الناس وفيه يعصرون، مات معاوية ... وقد حوّل المنبر إلى عرش فأورثه ليزيد، كان يزيد في «حوران» يقضي وقته في ملاعبة قرده، مستمتعًا بكلاب الصيد التي ملأت الجوّ نباحًا كشرطة أغضبها فرار ثائر كانت قد ألقت القبض عليه.

دخل قصره وقد بدت عيناه جمرتين متوقِّدتين. ألقى نفسه على السرير وأشار إلى الحاجب إشارة عرف مغزاها على الفور.

دخلت جارية روميّة تحمل إبريقًا فيه خمرة معتَّقة، برقت عيناه شهوة وكانت نظراته تفترس مفاتنها.

كان الحاجب يصغي من وراء الأبواب إلى ضحكات خليعة.

غرقت «حرّان» في بركة الظلام، توثَّبت شياطين الجنّ والإنـس وتحفَّزت النمور المختبئة، حطّمت قضبان الصدور، وراحت تعربد.

يزيد يتقلّب في فراش نسجته ديدان القز، وإلى جنبه تمدّد «قبيس» فاغرًا بوزه ببلاهة.

وفي عالم الأشباح رأى أنهارًا من دم تتدفَّق ما بين «الشامات» وبين «الحيرة» ورأى جماجم وضحايا؛ أجسادًا بلا رؤوس ورؤوسًا بلا أجساد، ورأى نفسه يخوض أمواج الدم، يغرق في برك حمراء حمراء.

هبّ من نومه مذعورًا، وقد توقَّدت عيناه فبَدَتَا كجمرتين أو كوّتين مفتوحتين على جحيم مستعرة.

فجأة دخل أحدهم يحمل معه كتابًا فأوجس يزيد خيفة كانت سحنة الرجل بلا لون؛ فقد حار هل يظهر حزنه بموت معاوية أو يتظاهر بفرح من أجل يزيد خليفة للمسلمين جديد.

رقص النمر المتوثِّب في الأعماق ... وجد نفسه طليقًا حرًّا. ها هي الدنيا تركع عند قدميه، والرجال تحني هاماتها له، سيكون الآمر الناهي من شواطئ بحر الخزر إلى عدن.

فجأة، قفز اسم الحسين إلى الذاكرة. هتف متوعِّدًا:

- هذا الشجى الذي يعترض حلقي.

أصدر يزيد أول أوامر الخلافة:

- إلى دمشق.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٤]

كانت أزقّة المدينة غارقة في الليل، وبدت النجوم كقلوب واهنة تنبض من بعيد، وقد جنح القمر المثلوم للمغيب فبدا كوجه مكدود أرهقه السهر.

كان رجل يمضي قدمًا يشقّ طريقه في الظلام، وفي رأسه فكرة واحدة؛ أن يبلّغ الحسين بدعوة «الوليد» أمير «المدينة» وحاكمها المطاع.

أفاق عليٌّ على صوت خبط للباب وأدرك انّها قبضة شرطي جاء بأمر ما.

قال الحسين وهو ينظر إلى النجوم البعيدة:

- رأيت في عالم الأطياف منبر معاوية منكوسًا وقد شبّت النار في قصره ... وما أظنّه إلّا هالكًا، فجاءوا

يأخذون البيعة ليزيد.

أمسك سبط محمّد قضيبًا لرسول اللّه، فقال رجل هاشميّ:

- قد يغتالونك، فالظلام يخفي سيوفًا وخناجر.

أجاب ابن محمّد:

- لا تخشَ شيئًا. أنتم ثلاثون رجلًا. تأهّبوا عند الباب، فإذا سمعتم صوتي قد علا، فاقتحموا.

جلس الحسين قبالة الوليد، وكان ابن الزرقاء ينظر بحقد ولؤم ... تمتم الوليد وكأنه يلوك الكلمات بصعوبة:

كان معاوية سور العرب ... قطع اللّه به الفتنة وملّكه على العباد وفتح به البلاد، إلّا أنّه قد مات فخلّف يزيد من بعده وهو يريدك أن تبايع.

أجاب الحسين:

- مثلي لا يبايع سرًّا ... فإذا دعوت الناس غدًا دعوتني معهم.

أطرق الوليد وقال:

- صدقت أبا عبد اللّه، انصرف إلى منزلك.

انبرى مروان بخبث:

- احبسه أيّها الأمير حتّى يبايع أو تضرب عنقه.

هتف الحسين بغضب:

- يا ابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو؟

وأردف وهو يخاطب «الوليد» معلنًا صرخة مكبوتة منذ عشرين سنة:

- أيّها الأمير: إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح اللّه وبنا يختم، ويزيد شارب للخمر قاتل للنفس المحرّمة، ومثلي لا يبايع مثله.

حاول الوليد أن يتفادى العاصفة بمثلها، فالتمعت خناجر في الظلام واقتحم رجال دار الإمارة، ولاذ ابن الزرقاء مرعوبًا خلف أميره.

غادرت العاصفة مجلس الأمير ... تركته خاويًا على عروشه، وأطلّ «مروان» كجرذ يُخرِج رأسه بحذر:

- عصيتني ولن تحصل على مثل هذه الفرصة.

- وبِّخْ غيري يا مروان. أتريدني أن اقتل سبط محمَّد؟!

- إذن لن يبايع حتَّى تتساقط القتلى.

هزّ الوليد رأسه دون أن ينبس ببنت شفة. ربما كان يفكِّر بالأفق المضمَّخ بلون الدماء، إنّه يعرف يزيد ... ذلك النزق المتهوِّر. أو لعلّه كان يعقد مقارنة بين مروان وأُمّه الزرقاء، وكان بيتها تخفق فوقه الرايات حيث يعبر الرجال مستمتعين. وبيت الحسين حيث منزل فاطمة مختلف الملائكة وأثر جبريل. يا لسخرية القدر!

وعندما أوى الوليد إلى فراشه همست زوجته بمرارة:

- كيف تسبّه؟!

- هو بدأني بالسبّ أوّل مرّة.

- أتسبّه وتسبّ أباه إن سبّك؟!

أغمض عينيه المحتقنتين وتمتم بندم:

- لن أفعل ذلك أبدًا.

[٥]

هجعت العيون، وأوت الكائنات إلى مضاجعها فالليل أعشاش دافئة، ومنازل هادئة، وعالم تطير فيه الأرواح تحلّق بعيدًا في دنيا شفّافة، تتسلّل من ثيابها السفلى، تخلع إهابها الجسديّ لتحلّق في عوالم الذرّ؛ ولو أصخيت السمع تلك الليلة لسمعت خطًى هادئة تتَّخذ سمتها نحو قبر يضمّ رسول اللّه إلى الأرض، ولو دقّقت النظر لرأيت رجلًا أقنى الأنف أشمّه، في عينيه تتألّق النجوم أنفاسه كأنفاس الفجر في لحظات الفلق.

كان السبط يشقّ طريقه في أزقّة المدينة الغافية، فهي لا تصحو على صوت خطاه، إنّها لن تستيقظ إلّا على سنابك خيل مجنونة، ها هو يتَّخذ سبيله نحو جدّه ينوء بحمل أمانة أبت السماوات حملها والأرض.

أدرك عليٌّ ما يموج في أعماق أبيه من هموم، منذ زمن وهو يصغي إلى استغاثات تأتي من بعيد ... من أرض السواد، من مدينة كانت ذات يوم عاصمة جدّه، ها هي يوم تستيقظ ... تتأوّه من سياط الجلّادين، تبحث عن رجل منحها المجد.

كان عليٌّ في ركن من حجرة طينيّة متوجِّهًا بكلِّيَّته صوب أوّل بيت وُضِع للناس، قلب يخفق كما تخفق النجوم بضوئها الأزرق.

تنساب الكلمات من بين شفتيه كنهرٍ هادئ تترقرق في سمع الكون، لحظات يلتحم فيها الإنسان بالعالم الأكبر في لحظة اكتشاف كبرى حيث تنحسر الأشياء عن ظاهرها الخادع، تبرز الحقيقة ناصعة أن لا شيء سوى اللّه ... اللّه وحده. الكلمات الإنسانيّة تتدافع كأمواج متلاحقة باتجاه عوالم لا نهائيّة ... وحده صوت الإنسان يعبّر عن الحقيقة في صمت الليل:

- اللّهمَّ يا ملاذ اللّائذين ... ويا معاذ العائذين ... ويا عاصم البائسين ... ويا مجيب المضطرِّين ... ويا جابر المنكسرين ... ويا مأوى المنقطعين ... ويا

ناصر المستضعفين ... ويا مجير الخائفين ... ويا مغيث المكروبين، إن لم أعذ بعزّتك فبمن أعوذ؟ وإن لم ألذ بقدرتك فبمن ألوذ؟

ما أجمل أن يلتحم الانسان بمسيرة الكون! ... وما أسمى أن يكتشف طريقه إلى اللّه! ... وما ألذّ لحظات الحبّ عندما تعرف النفس بارئها فتحلّق بين النجوم وتصطفُّ مع الملائكة تسبّح بحمد ربّها ... فإذا الكون محراب عبادة والمجرّات محطّات رحيل.

الرواحل تتَّخذ طريقها صوب مكّة، وصوت له نفحة السماء يخترق آذان الليل:

- فخرج منها خائفًا يترقّب، قال ربِّ نجِّني من القوم الظالمين.

الصحراء مدّ البصر، والطريق الذي رسمته القوافل منذ عشرات السنين يتألّق في ضوء القمر كأنّه يشير إلى مكّة مهوى الأفئدة.

عاد الصوت الملائكيّ يعيد إلى الأذهان قصّة الشريد الذي اخترق صحراء سيناء وحيدًا:

- ولمّا توجَّه تلقاء مدين قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل.
- إلى أين يابن محمّد؟
- إلى مكّة.
- ألم يهاجر جدّك إلى يثرب بحثًا عن وطن ... عن أرض يُعبَد فيها اللّه وحده؟
- أجل ويثرب في قبضة الطلقاء ... في أيدي أعداء الأمس.
- كيف عبروا الخندق؟ ...
- لقد رُدم الخندق في «السقيفة» ... بعد أن أغمض النبيُّ عينيه.

للطباعة والنشر لشركة كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٦]

يا مكّة، يا مدينة مترعة بالحزن، لم تطل فرحتك سوى عدد سنين يوم تهاوت الأصنام أنقاضًا عند جدران البيت العتيق، جاءت أصنام أخرى ... أصنام من طين ... من صلصال من حمأ مسنون.

وها هو حفيد محمّد جاء ليحطّم الأوثان الآدميَّة ... ولكن كيف، ويزيد عِجْلٌ له خُوار؟! ... وقد عكفت الأُمّة عليه، فلا صوت ولا رأس يرتفع ... ليقول: لا ...

لماذا يدور الحسين في شوارع المدينة ... يطوف حول الكعبة العظيمة ... يدور حول البيت؟

لماذا يسعى بين الصفا والمروة يبحث عن نبع ماء مفقود، فمكّة عادت من جديد واديًا غير ذي زرع؟! ...

لمَ يبكي عند «خديجة» فالعام عام حزن وقد غاب أبو طالب وأضحى محمّد وحيدًا يبحث عن أنصاره ليهاجر؟

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى:

يا حسين، عجّل بالخروج، فابن العاص قادم ومعه أمر باغتيالك.

- لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم ... رضا اللّه رضانا أهل البيت ... ألا من كان موطّنًا على لقاء اللّه نفسه فليرحل معي، فإنّي راحل.

- إلى أين يا أبا عبد اللّه؟

- إلى صحراء بين النواويس وكربلاء.

قال رجل مشفق:

- امكث في مكّة فأنت سيّد الحجاز.

- لا أُريد أن تُستحلَّ حرمة البيت بقتلي.

- وهل يجسرون على قتلك؟

- أجل، لَيعتدُنَّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت.

وقال أخوه من أبيه:

- كيف تثق بأهل الكوفة وقد غدرت بأبيك وأخيك؟

- أخشى أن يغتالني يزيد في الحرم فتُستباحَ حرمة البيت.

وعندما استوى الحسين على ناقته، قال أخوه وقد أخذ بزمامها:

- لا تأخذ النسوة معك إذًا.

قال الحسين وهو ينظر إلى الأُفق المضمَّخ بحمرة الشفق:

- شاء اللّه أن يراهنّ سبايا.

ثمانية أيّام مضين من شهر ذي الحِجَّة، غادرت قافلة عجيبة ديار مكّة ... كانت تسير على هون وبدت الجمالُ كسفن تبحر في صحراء متموّجة، تريد أن تحدّد للتاريخ وجهة جديدة.

النجوم تتألّق في سماء بدت كعباءة عربيّة غارقة في الكحل، أشرق هلال المحرّم فبدا في غمرة الظلام وامتداد الرمال، ابتسامةَ مكلوم، أو زورقًا يودّع بحيرة رائقة.

سرٌّ ما شدّ القافلة إلى هذه البقعة من دنيا اللّه، لكأنما تسمّرت حوافر الخيل وبركت النياق كسفن ألقت مراسيها في مرفأ مهجور.

شعر عليّ بالإعياء يسري في جسده حتّى سلبه القدرة على النهوض، ولكنّه جرجر نفسه بعناء إلى خيمة جلس فيها الحسين يرسم لأصحابه طريقًا عجيبًا.

تمتم الحسين آسفًا:

- الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم.

وسكت هنيهة وأردف:

- قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون ... وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلّا صُبابة كصُبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ... ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟! ليرغب المؤمن في لقاء اللّه ... فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برمًا.

هتف زهير، وكان قد التقى الحسين على قدر:

- لو كانت الدنيا لنا باقية وكنّا خالدين فيها، لاخترنا الموت معك.

قال برير وكان من قرّاء الكوفة:

- انّها نعمة يابن رسول اللّه أن نقاتل معك، وأن تُمزّق أجسادنا، ليكون جدّك شفيعنا يوم القيامة.

وهتف ابن هلال بحماس من اكتشف ينابيع الخُلْد:

- سِرْ بنا راشدًا شرقًا شئت أو غربًا .... إنّا نحبُّ لقاء ربّنا على نيّاتنا وبصيرة من أمرنا ... نوالي من والاك ونعادي من عاداك.

انبرى الرجال لدقّ أوتاد الخيام كأنّهم يحدّدون معالم مدينة ستولد فيما بعد.

ازدحمت في السماء سحب كأكوام من الرماد يتراكم بعضها فوق بعض، وبدا الجوّ مشحونًا بالغضب؛ واختلطت أصوات الرجال برُغاء الجِمال وصهيل الخيل وقعقعة الأسلحة.

انتشر أربعة آلاف من الذين لا إيمان لهم على طول شاطئ الفرات وبدت الرماح بأنصالها خناجر في خاصرة

النهر حيث راحت أمواجه تتدافع باتجاه الجنوب فرارًا من نفوس مكتوب عليها الشحّ ولو بقطرة ماء.

مرّت سبعة أيّام من المحرّم، والحصار يشتدّ. كان «ابن سعد» يمنّي نفسه باستسلام القافلة، فالماء يعني الحياة، ومنعه يعني الموت، وهل هناك من يختار الموت على الحياة؟

- ولكنّ فيها أطفالًا.
- ليكن، إنّها الحرب.
- لقد سقانا الحسين قبل أيّام ... سقى ألف إنسان وألف حصان.
- لأنّه يجهل لعبة الحرب ...
- بل لأنّه إنسان.
- ونحن؟!
- أنتم لم تعودوا شيئًا. لقد مات الإنسان في أعماقكم وانتصر الخِنزير القابع في نفوسكم.

- كفى هراءً ... سوف يستسلم الحسين وعندها سأنطلق إلى «الرَّيِّ وجرجان» ... سأحكم بلادًا واسعة.

- والحسين؟!

- الحسين ... الحسين ... ليتنحَّ عن طريقي وإلّا سأعبر فوق جسده ... ولتمزّقه سنابك خيل مجنونة.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٧]

كانت مضاربة القافلة بين يدي «ذو حسم» ولو قدّر لأحد أن يراقب من فوق قمته المكان لرأى خيامًا متناثرة هنا وهناك حيث يمرّ الفرات تتدافع أمواجه كأفعى مذعورة.

كان الحسين واقفًا أمام خيمة تعصف بها الريح من كلّ مكان. ينظر إلى الأفق البعيد البعيد كما لو أنّه ينظر إلى آخر الدنيا.

جنحت الشمس إلى المغيب ... رسمت لوحتها الحزينة في السماء كجراح الأنبياء؛ وشيئًا فشيئًا غادرت حمرة الغروب، وامتلأ الأُفق رمادًا وفتحت النجوم عيونها وراحت تنبض في صفحة السماء كقلوب خائفة.

في غمرة الظلام المهيمن، وقد سكنت الأصوات فلا

تسمع إلّا همسًا، هتف ابن سعد متوجِّسًا وهو يتطلّع إلى «ابن قرظة»:

- ماذا تريد؟!

- أرسلني الحسين للاجتماع بك بين المعسكرين.

- ومن معه؟

- أخوه العبّاس وابنه عليّ.

- التفت ابن سعد إلى إلامه وإلى ابنه حفص:

- انهضا معي.

كان ابن سعد يجرجر خطاه مترنِّحًا، وآلاف الأفكار تتراكض في رأسه كأرانب مذعورة، قال في سِرِّه:

- تُـرى، ماذا سيفعل الحسين؟! هل يفرّ في جنح الظلام؟ هل يستسلم؟ هل يقاتل؟

ولكن كيف يفرّ من كان أبوه عليّ؟ وكيف يستسلم سبط محمَّد «للطلقاء»؟

أم تُراه سيقاتل بسبعين رجلًا!!

لاح الحسين من بعيد كنخلة هيفاء.

هَتَفَ ابن سعد مأخوذًا:

- أيّة روح ينطوي عليها هذا الرجل؟!

- أتحاربني يابن سعد ...، وأنا ابن من تعرف؟!

وسكت هنيهة ثمَّ أردف مضيئًا له الطريق:

- كن معي ودع هؤلاء فهو أقرب إلى اللّه.

انتصبت أحلام ابن سعد أمام عينيه ... تجسّدت رؤى وخيالات طالما شغلت رأسه واستحوذت على روحه.

رأى فتيات جميلات في القصور يمرحن بغنج، فقال بنفاق:

- لسوف يهدمون داري.

- أنا أبنيها لك.

- وبساتيني ... إنّهم سوف ينتزعونها منِّي.

- أُعطيك «البغيبغة» فيها زروع كثيرة ونخيل.

- وعيالي؟! إنَّني أخشى عليهم بطش ابن زياد.

أدرك الحسين أنّ هذا الرجل قد مات منذ أمد بعيد ... لم يعد سوى جثّة نتنة.

نهش السبط وقال بغضب:

- مالك؟! أذبحك اللّه على فراشك؟! ...

وانكشفت له صفحة الغد فقال:

- لن تأكل من قمح العراق إلّا يسيرًا.

تمتم «ابن سعد» وابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيه:

- في الشعير كفاية.

للطباعة والنشر
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٨]

جثم صمت رهيب فوق المكان وألقى الحزن كلاكله كغراب أسطوريّ؛ والقلوب الصغيرة الظامئة تصغي إلى أصوات بعيدة تأتي من جهة الفرات كعواء ذئاب جائعة في ليلة شتائيّة. قالت امرأة اسمها زينب:

- لقد اقترب العدوّ.

التفت الحسين إلى أخيه:

- انهض لترى ماذا يريدون.

عوى ذئب من بعيد:

- الاستسلام أو الحرب.

هتف حبيب مستنكرًا:

- بئس القوم أنتم غدًا عند اللّه ... أتقتلون سبط النبيِّ ... وقومًا متهجِّدين بالأسحار يذكرون اللّه كثيرًا؟!

قال عزرة وقد برقت عيناه بشهوة الغزو:

- إنّك تزكِّي نفسك ما استطعت.

ردّ زهير:

- إنّ اللّه قد زكّاها يا عزرة. لقد سوّلت لكم أنفسكم أمرًا عظيمًا.

- ومتى كنت شيعة للحسين يا زهير؟!

- جمع بيني وبينه الطريق ... فذكرت به محمّدًا.

قال عزرة بصفاقة.

- إنّنا نمتثل لأمر خليفته.

- يزيد!!

- أجل أمير المؤمنين يزيد.

هتف العبّاس ليضع حدًّا للمرارة:

- إذن امهلونا هذه العشيَّة إلى غد.

ردّ ابن سعد وقد ذهبت به الظنون:

- إلى غد ... ولكن إما الاستسلام أو الحرب.

أصدر ابن سعد أمره بالانسحاب، وشيئًا فشيئًا انحسرت قعقعة السلاح وكفّت الخيل عن الصَّهيل ولم يبق سوى أصوات تشبه عواء الذئاب في ليالي الزمهرير.

تسمّر التاريخ عند خيمة أضاءها سراج واهن ... كان يصغي إلى كلمات آخر الأسباط.

- أحمدك اللّهمَّ على أن أكرمتنا بالنبوّة وعلّمتنا القرآن وفقَّهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعًا وأبصارًا وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين.

كانت نظراته الدافئة تغمر رجالًا ينشدون الموت من أجل الحياة، فانسابت كلماته كنهر هادئ:

- إنّي لا أعلم أصحابًا أوفى من أصحابي ولا أهل بيت أبرّ من أهل بيتي ... وإنّي أظنّ أنّ يومنا من الأعداء غدًا؛ وأنّهم إنّما يطلبونني ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري، فانطلقوا جميعًا وهذا الليل فاتخذوه جملًا، وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل

بيتي، وتفرّقوا في المدن البعيدة.

- وأنت يا سيِّدي؟

- ما كان للحسين أن يفرّ.

- ما قيمة الدنيا كلّها سواك؟!

قال ابن عوسجة:

- واللّه لو لم يكن معي سلاح لقاتلتهم بالحجارة.

وقال الحنفيُّ:

لو قُتِلت سبعين مرّة ما تركتك، فكيف وهي قتلة واحدة؟!

وقال زهير وهو يتطلّع إلى وجه مضمَّخ بعبير النبوّات:

لو قُتِلت ألف مرّة فلن أدعك وحيدًا.

وفي تلك اللحظات حيث تلتحم السماء بالأرض أشار الحسين فانكشفت الآفاق عن جنّة عرضها كعرض السماوات والأرض .. جنّات من نخيلٍ وأعناب والأنهار الخالدة تتدفّق مطّردة، بدا الفرات إزاءَها كخيط من الملح والرماد.

[٩]

يا لها من ليلة عجيبة تمرّ لحظاتها كسنين متمادية، وساعاتها كالقرون لا تكاد تنتهي، لكأنّها تريد أن تستوعب التاريخ البشريّ بأسره!

جلس عليٌّ متهالكًا وبدا جسمه حطامًا حتّى لم تعد له قدرة على النهوض، يتطلّع إلى النجوم ... إلى عالم لا نهائيّ ... عالم مفعم بالصفاء ... عالم بعيد عن ويلات الأرض وما يجري فيها على يد الإنسان.

كانت خيمته إلى جوار خيمة أبيه.

الحسين وحيد وحيد ... يعرف أنّها النهاية أو البداية ... راح عليٌّ يرهف سمعه لكلمات أبيه وهي تمتزج مع صوت يشبه شحذ السيوف ... فالمعركة وشيكة قاب قوسين أو أدنى ... وغدًا يوم الفصل.

تطلّع إلى عمَّته التي دخلت توًّا ربَّما لتمرّضه ... جاء صوت الحسين هادئًا مثل ناي حزين، فيه عتاب للزمن الذي لا يكفّ عن الغدر:

يا دهر، أفٍّ لك من خليلِ

كم لك بالإشراق والأصيل!

من طالب بحقِّه قتيل

وكلّ حيٍّ سالك سبيلي

ما أقرب الوعد إلى الرحيل

والدهر لا يقنع بالبديل

شعر عليٌّ بالكلمات تغوص في قلبه ... تمزّق شرايينه وتذبحه من الوريد إلى الوريد، كاد أن يغرق في موجة طاغية من البكاء، والبكاء يكاد يكون سلاحًا لمواجهة الزمن الغادر. فهذا الغضب المتفجِّر في الأعماق يدمّر الأشياء ... يحيلها إلى حطام إذا لم يجد متنفسًا له في الدموع. فالسماء ما تزال مشحونة لا تكفّ عن البروق، والرعود لن تهدأ حتّى ينهمر المطر مدرارًا.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

وبكى عليّ بصمت كسماء تمطر على هون.

لم تتمالك زينب، لم يتحمَّل صبرها العجيب ما تسمع، فهبّت تجرّ الذيول إلى خيمة كالعرين.

هتفت بصوت يشبه نشيج الميازيب في مواسم المطر:

- ليت الموت أعدمني الحياة ... اليوم ماتت أمّي فاطمة وأبي عليّ ... يا خليفة الماضين وثُمالَ الباقين.

ورمق الحسين شقيقته التي اختارت طريقه، وقال مصبّرًا:

- يا أُختاه، تعزّي بعزاء اللّه ... إنّ أهلَ الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون وكلّ شيء إلى زوال، ويبقى وجه اللّه وحده.

قالت وهي تنتحب:

- أَفتُغصَبُ نفسك اغتصابًا؟! ... إنّ قلبي لا يطيق.

كان صمت الليل كفيلًا أن يجعل من الأُذُن الآدميَّة مرهفة تلتقط حتّى دبيب الهوامّ فكيف بالبكاء في زمن غادره الفرح وبدت مقرفة فيه الأشياء؟!

وجد الحسين نفسه وسط نسوة ينشدن الأمن في زمن

الخوف، كطيور مذعورة تبحث عن أعشاشها في غمرة الظلام.

نظر الحسين إلى زينب نظرة طويلة أودعها كلّ ما يريد.

قال بحزن:

- يا أُختاه، ويا فاطمة ويا رباب ... إذا قُتِلت فلا تَشقُقنَ عليّ جيبًا، ولا تخمشن وجهًا، ولا تقلن هجرًا.

نهض الحسين يواجه الغد القادم بعد ساعات، فلقد اشتدّت ظلمة الليل، وبدت النجوم أكثر بريقًا، لكأنّها عيون مفتوحة ترقب ما يجري على شاطئ الفرات بين النوانيس وكربلاء. وهناك على شاطئ النهر قطعان الذئاب تنتظر لحظة الانقضاض على الإنسان.

[١٠]

ما تزال النجوم مسمّرة في السماء كمسامير في لوح كحليّ وقد بدا الجوّ مشحونًا بالخطر؛ فالقافلة التي ألقت مراسيها في هذه البقعة من الأرض تحاصرها قطعان الذئاب.

خرج الحسين يتفقّد أرضًا ستصبح بعد ساعات ميدانًا لملحمة عظيمة يتحطّم فيها الإنسان، ولكنه لن يهزم أبدًا، تتمزّق فيها الأجساد الآدميّة أمّا الروح فستبقى متألِّقة قويّة كما خلقها اللّه وأودع فيها كلمته.

هتف «الجمليّ» وكان قد أقلقه خروج الحسين إلى أرض يحدق بها الغدر من كلِّ مكان:

- إلى أين يا سيِّدي الحسين. لقد أفزعني خروجك وحيدًا، أخشى عليك الغدر.

- خرجت أتفقّد هذه التلال ... أخشى أن تكون مكمنًا لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون.

وأردف وهو يشدّ على يده بدفء:

انظر ... خيامنا مكشوفة الظهر؛ علينا أن نحفر الخنادق حتّى لا تفاجئنا الخيل ... والخيام مبعثرة علينا أن نقارب بينها حتّى لا ينفذوا خلالها.

هتف الجمليُّ مبهورًا برجل لا يعرف اليأس رغم عنف العاصفة:

سيكون القتال في جبهة واحدة.

نعم في جبهة واحدة.

لم تحن لحظة الفلق بعد عندما دبّت في معسكر الحسين حركة تشبه دويّ النحل ... النحل الذي لا يعرف غير العمل.

تشابكت أوتاد الخيام في عناق صميميّ كأنّه يعكس تلاحم القلوب ... القلوب التي لا تعرف غير الحبّ ...

وانبرى رجال يحفرون الخنادق لِتملأ حطبًا؛ فاذا اشتعلت المعركة تحوّل الخندق إلى خطوط ملتهبة.

انبرى رجل صحب النبيَّ وشهد معه «أُحدًا» فشدَّ جبينه بعصابة فأضاء مشهد في ذاكرته.

كان صوت النبيِّ وهو يخطِّط للمعركة عند جبل أُحد مدوّيًا:

انضحوا الخيل بالنبل، لا يأتونا من خلفنا.

انطلق الرماة إلى جبل «عينين» ووصايا النبيِّ في آذانهم .. احموا لنا ظهورنا ... ارشقوهم بالنبل فإنّ الخيل لا تقدم على النبل ... إنّا لا نزال غالبين ما لبثتم مكانكم.

انطفأ المشهد ... وبلع الصحابيُّ ريقه بمرارة لأنّه تذكّر كيف نسي الرماة وصايا النبيّ فاجتاحت خيول قريش جيش محمّد وراحت تفتك به كذئاب في ليلة زمهرير موحشة.

راح يحدّق بسبط محمّد لكأنّه ورث عبقريَّة جدّه ... رجل لا يعرف للهزيمة معنًى ... إنّه يقتحم الموت اقتحامًا، ينهال على صخرة العطش ليفجّر منها ينابيع من سلسبيل.

انفلق الفجر وتبيّن للكائنات الخيط الأبيض من الخيط الأسود. وشيئًا فشيئًا لاحت من بعيد ذرى النخيل تحفُّ الشطآن كعيون حوريّة شهيدة ... وقد نزلت سورة المقاومة.

ها هي الذئاب تعوي، أسكرتها شهوة القتل، كدوّامة راحت القبائل تدور حول قافلة جاء بها القدر.

كان عليّ ينوء بنفسه ... بجسده الواهن ... وقد أخفقت روحه العظيمة أن تنهض به؛ وفار غضب سماوي في أعماقه وهو ينظر إلى والده متقلّدًا سيف محمّد يقاتل أشباه الرجال، إنّهم لا إيمانَ لهم.

تمتم بغضب:

يا أُمّة السوء بئسما خلَّفتم محمَّدًا في ذرّيَّته!

ودمعت عيناه وهو يراقب أباه يستوي على ناقة. فبدا في عليائه كنبيّ يعظ قومه وينذرهم سوء العذاب، راح يصغي إلى كلمات الحسين وقد أشرقت شمس أطول يوم في التاريخ.

أيّها الناس، إنَّ اللّه تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرِّفةً بأهلها حالًا بعد حال؛ فالمغرور من غرّته والشقيُّ من فتنته، فلا تغرّنَّكم هذه الدنيا فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيّب طمع من طمع فيها. وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم اللّه فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته. فنِعمَ الربّ ربُّنا!

وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمَّد ثم إنّكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم. لقد استحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر اللّه العظيم فتبًّا لكم ولِما تريدون. إنّا للّه وإنّا إليه راجعون. هؤلاء قوم كفروا ابعد إيمانهم، فبعدًا للقوم الظالمين.

كانت الكلمات تنفذ في قلبه، تفجَّر حزنًا وغضبًا ودموعًا.

غامت المرئيَّات أمام عينيه، وتلاشت زعقات الرجال وصهيل الخيول، وشعر بروحه تحلّق بعيدًا حتّى لم يعد يشعر بكلّ ما يجري حوله من أهوال.

غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[١١]

لا يدري كم مضى من الوقت عندما أفاق ... ولكنّه عندما فتح عينيه ألفى ما حوله يدور في دوّامة رهيبة، وقد تسمّرت الشمس في الأفق تتشظَّى لهيبًا وجحيمًا. وكان أبوه في قلب أصحابه وأهل بيته، وقد هبّوا جميعًا يكتبون بالدماء واحدة من أعظم الملاحم في تاريخ الإنسان.

رمى «ابن سعد» أوَّلَ سهام الموت معلنًا بداية الحرب وصرخ بغرور:

- اشهدوا لي عند الأمير أنِّي أوّل من رمى.

وانطلقت آلاف السهام لكأنّ السماء تمطر وابلًا من نبال.

هتف الحسين محطِّمًا جدران الزمن:

– قوموا إلى الموت الذي لا بدّ منه ... فإنّ هذه السهام رسل القوم اليكم.

حانت لحظة الالتحام. سبعون أو يزيدون يقاومون إعصارًا محمّلًا بحقد الشياطين وهي ترى الملائكة تسجد للإنسان.

تبدّد غبار الاشتباك، وقد أسفرت المعركة عن خمسين جريحًا تناثروا فوق الرمال.

ولو قدّر لك أن تكون في تلك الساعة فوق قمّة «ذو حسم» لرأيت سبط آخر الأنبياء في التاريخ وهو يعيد تنظيم قوّاته استعدادًا لجولة أخرى ... ولذهلت لبسالة إنسان لا يعرف لليأس سبيلًا إلى نفسه. قلبه الذي يضاهي الجبل بثباته لا يعرف غير المقاومة.

انظر إلى الجناح الأيمن في جيش يزيد. لقد بدأ هجومًا كاسحًا. كان عمرو بن الحجَّاج يقود ذئابه لحسم المعركة.

كان رجال الحسين يقاتلون بعزم حديديّ أو أشدّ بأسًا ... حتّى أجبروا المهاجمين على التراجع ... وقد سقط «ابن عوسجة» مضمَّخًا بالدماء يتمتم بصلاة هادئة.

قال حبيب وكان صديقًا له:

- عزّ عليّ مصرعك يا مسلم! ابشر بالجنّة.

همس بصوت واهن وقد ارتسمت ابتسامة كشمس تشرق من وراء الغيوم:

- بشّرك اللّه بالخير.

قال حبيب:

- لو لم أعلم أنّي في الأثر لأحببت أن توصي إليّ.

أجاب مسلم ملقيًا وصيته الخالدة للأجيال:

- أوصيك بالحسين أن تموت في سبيله.

هتف حبيب وقد تفجّر في أعماقه غضب سماويّ:

أفعلُ وربّ الكعبة.

ظهر الشمر كخِنزير يقود الجناح الأيسر من جيش يزيد ... ها هو يستعدُّ للغدر والفتك وقتل أولاد الأنبياء.

واستعدَّ رجال الحسين لصدّ الهجوم، وامتلأ الفضاء غبارًا ولهيبًا وبدت السيوف في غمرة التراب المتطاير صواعق تحتفل فوق الأرض.

صرخ الشمر وهو يمزّق خيمة الحسين بالرمح:

عليّ بالنار لأحرقها على أهلها.

فرّت النِّسوةُ والأطفال كطيور هاربة من سفن غرقت في القرار.

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[١٢]

أشعلت القبائل النار في أطراف الخيام عن اليمين وعن الشمال للإطباق على معسكر الحسين.

هتف السبط بأصحابه:

- دعوهم يحرقوها، فإنّهم إذا فعلوا ذلك لم يجوزوا إليكم.

حمي الوطيس، وقد توسّطت الشمس كبد السماء وهي ترسل حُمَمَها فوق بقعة من الأرض ملتهبة؛ والذئاب تعوي منتشيةً بثأر قديم.

قال «الصائديّ» وقد زالت الشمس:

- إنِّي لأحبُّ لقاء اللّه والصلاة معك.

رفع الحسين طرفه إلى السماء.

ـذَكَرْتَ الصلاة، جعلك اللّه من المصلّين الذاكرين. نعم، هذا أوّل وقتها، سلوهم أن يكفّوا عنّا حتّى نصلّي.

جاء صوت الحصين يقطر نذالة:

- إنّها لا تُقبَل منكم.

هتف حبيب بغضب:

- زعمت أنّها لا تُقبَل من آل الرسول، وتُقبَلُ منك يا حمار!

وتوجّه الحسين بأصحابه إلى السماء وقد جانت لحظة اللقاء.

عندما تصفو النفوس تتحوّل إلى أرواح مجرّدة تتخلّص من إهاب الجسد، وتحدث لحظة الانعتاق بين ما هو ملكوتيّ ينتمي إلى السماء وبين ما هو مادّي ينتسب إلى الأرض.

في تلك اللحظات العصيبة، والأجساد تنزف دمًا للّه، تفتّحت أبواب السماء، وهتف الحسين مأخوذًا بما يرى من

عوالم ورديّة:

- يا كرام، هذه الجنّة قد فتحت أبوابها، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، وهذا رسول اللّه والشهداء الذين قُتِلوا في سبيل اللّه يتوقّعون قدومكم ويتباشرون بكم، فحاموا عن دين اللّه ودين نبيّه.

وتضاءلت الدنيا حتّى أصبحت أتفه من جناح ذبابة، وهتف الإنسان الذي انتصر الملاك في أعماقه:

- نفوسنا لنفسك الفداء، ودماؤنا لدمك الوفاء ... واللّه لا يصل إليك وإلى حرمك سوء وفينا عرق يضرب.

لقد تحوّل الحسين إلى رمز لكلّ الفضائل الإنسانيَّة، فالدفاع عنه دفاع عن إنسانيّة الإنسان وقهر الشيطان.

كان عليّ يرقب من خيمته هول ما يجري فوق الرمال. لا أحد يدري كم هي المرّات التي كان ينهض فيها ليهوي متهافتًا فوق الأرض ... يا لضعف الجسد الآدميّ ويا لعذاب الروح التي لا تجد من يحملها ليحقق إرادتها، فلا هي تنعتق لتحلّق بعيدًا عن ويلات الأرض، ولا هي تنهض بهذا الجسد الذي غدا حطامًا لا يقدر على شيء.

ما أصعب تلك اللحظات! السيف المعلّق فوق عمود الخيمة ينتظر صاحبه.

للمرّة الأخيرة نهض حفيد عليّ، واستند إلى عصًا وحمل سيفه. بدا له أنّه يحمل الأرض ومن عليها. جرجر نفسه وسيفه إلى خارج الخيمة ... كان هدفه أن يلتحق بالحسين بأيّ ثمن.

هتف الحسين بأُخته وقد وقعت عيناه عليه:

– احبسيه لئلّا تخلو الأرض من نسل محمّد.

ووجد عليٌّ نفسه مرّة أخرى في الفراش، فشعر أنّ روحه تكاد تخرج، وغامت المرئيَّات أمام عينيه حتّى لم يعد يسمع صوتًا أو يشعر بشيء.

[١٣]

الزمان يمرّ ... يمرق كنهر تتدافع أمواجه ... لا يتوقّف لأحد فهو يمضي لغايته ... الينابيع تدرك سرّ النهر، لهذا فهي تفور ... وحدها المستنقعات والبرك الآسنة لا تعرف سرّ الفوران؛ لهذا يموت الآدميُّون ... ينطوي ذكرهم وتبقى جراح الأنبياء وحدها تفور ... تدرك لغز الزمن.

كان نهر الزمن يجري ... يتسابق مع الفرات الظامئ وهبّ عليٌّ على صوت صهيل غاضب يصكُّ سمع الدنيا ... لقد هوى شيخ القبائل والفرس دكَّ الأرض بسنابِكِهِ يُريدُ أن يوقِظ في الأرض سرّ الولادة.

اهتزت الأرض ... رجفت بأهلها ومادت ... لقد قتل هابيل ... دماؤه تلوّن الأرض ... الذعر يغزو القلوب الآدمية.

سقط رأس يحيى بين يدي «سالومي».

هوى «ابن أبي طالب» في المحراب مضمَّخًا بالدماء.

ما يزال غبار المعارك عالقًا في الهواء، وبدا الأُفق مستعرًا بحمرة دامية.

ألفى عمَّته تشقّ طريقها نحو آخر الأسباط في التاريخ. صوتها يشقّ الفضاء:

- ليت السماء أطبقت على الأرض... وليت الجبال تدكدكت على السهل.

مثل دوّامة ما لها من قرار كانت الذئاب تدور حول رجل من ذرِّيّة الأنبياء...

السيوف المجنونة تتخطَّف ابن بنت نبيٍّ هو أعظم الأنبياء.

كان عليٌّ ينوء بروح مثقلة بهموم كالجبال.

الأرض تستعيد لحظات قديمة قدم الجبال في الجزيرة.

كان «صالح النبيُّ» يعظ قومه وقد تمخَّض الجبل ووُلِدَت الناقة:

- يا قوم، هذه ناقة اللّه لكم آية.

كانت ناقة مباركة تدرّ لبنًا سائغًا للشاربين. وتساءل الآدميُّون:

- كيف تلد الصخور ناقة بهذا الجمال ... بهذا العطاء ... كيف تدرّ كلّ هذا اللبن؟!

لم تؤمن قبائل صالح ... والقلوب المظلمة لا تلد غير الحقد والضغينة والمؤامرة ... قلوب منحوتة من صخور صمّاء ... وإنَّ من الحجارة لما تتفجّر منها الينابيع.

وهكذا تحوّل الحقد على «صالح» إلى حقد على «الناقة» وطفلها الصغير.

في تلك الليلة العاصفة والرياح تهبّ من ناحية الشمال ... وكانت الناقة تحتضن فصيلها الوديع، والطفل يزداد التصاقًا بأُمّه يلتمس الدفء والمحبَّة والسلام؛ في تلك الليلة وُلِدَت المؤامرة، وجلس «الرهط» يفكِّرون.

كانت كؤوس الخمرة تدور فسوّل لهم الشيطان أمرًا.

كما تنسج العنكبوت خيوطها، نسج المخمورون مؤامرتهم، استلّوا خناجرهم وانسلّوا في غمرة الظلام. كانت الناقة غافية هي وصغيرها ...

كانت الظلمة كثيفة إلى حدّ جعلهم يتعثرون وهم يشقّون طريقهم إلى حيث ترقد الناقة بسلام.

كانوا تسعة أشبه ما يكونون بالذئاب ... الذئاب التي تزداد شراسة وغدرًا كلّما تكاثف الليل.

ونشبت خناجر تسعة في قلبين ينبضان بالدفء والحبّ والعطاء؛ وسالت الدماء حمراء حمراء صبغت الأرض ولوّنت الصعيد.

واستيقظت ثمود، وقد حلّ في الأرض خوف رهيب؛ لم تعد هناك معانٍ لمواعظ الأنبياء؛ لقد حلّت اللعنة.

كان صالح يتمتم بحزن، وهو يرى غضب السماء قاب قوسين أو أدنى:

- تمتَّعوا في داركم ثلاثة أيّام، ذلك وعدٌ غير مكذوب.

وغادر صالح القبيلة الملعونة ...

ومضى يوم وأعقبه يوم ثمّ يوم، ثمّ انشقَّت السماء عن صيحة جبّارة ... انقضّت على قُصورٍ منحوتة في قلب الصخرِ فجعلتها دكًا ... وما هي إلّا لحظات حتّى تحوّل كلّ شيء إلى حطام وأنقاض متراكمة بعضها فوق بعض ... لم

تكن هناك سوى عيون «تبحلق» برعب ودناءة، تحكي قصّة الغدر والخيانة ودسائس الشيطان.

الحسين ما يزال ينوء بنفسه ... تتدفَّق جراحه دماءً تلوّن الأرض وتصبغ الصعيد بلون جديد.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[١٤]

ما أقسى هذا الزمن المرير! وما أشدّ هذه اللحظات هولًا! كيف تتحطّم الأشياء الجميلة، وتهرب من هذا العالم، ليظهر الشيطان بقرنيه يعربد ويدمّر.

ها هو الأبرص يرتقي صدر السبط؛ كغراب أسطوريّ جاثم. القبائل مأخوذة بما يجري فوق الرمال. كانت أوداج الحسين تشخب دمًا ... تتدفّق مثل نافورة أزليّة تسقي الأرض، تودعها الأسرار.

همس الحسين بصوت أضعفته الجراح المتدفِّقة:

- ويلك ... لقد ارتقيت مرتقًى عظيمًا ... فمن تكون؟

فتح الجاثم «بوزه» فبانت أنياب ينزّ منها صديد:

- أنا الشمر الضبابي.

- أتعرفني يا شمر؟

- أجل ... أعرفك ... فأنت الحسين وجدّك رسول اللّه وأُمّك فاطمة.

فلِمَ تقتلني إذًا؟

- أُريد بذلك جائزة يزيد.

- وشفاعة جدّي محمّد؟ ألا ترغب في شفاعة رسول اللّه؟!.

- شفاعة محمّد ... ما قيمتها؟ إنّها لا تساوي لديّ دانقًا واحدًا.

وساد صمت رهيب ... إنّه السكوت الذي يسبق حدوث الكوارث.

تمتم الحسين بحزن:

- صدق جدّي محمّد.

- ترى ماذا قال محمّد؟

- قال لأبي: يا علي يُقتل الحسين بأرض تدعى كربلاء يقتله رجل أشبه بالكلاب والخنازير.

– محمّد يشبّهني بالكلاب وبالخنازير ... لأذبحنّك.

انفجر الحقد وراح يعربد في أعماقه ككلاب مسعورة وخنازير.

السيف الضبابيّ يشقّ طريقه الآثم في شرايين الحسين، يقطّع الأوردة والعروق ...

ندّت آهة عظيمة وانطفأت عينان كانتا تضيئان العالم.

الدنيا مظلمة ... والكائنات مذعورة.

السماء تهطل دمًا عبيطًا ... وفرس غاضبة تصهل عاليًا تتَّجه صوب الفرات الظامئ فتغوص في لجّة المياه والقرار ... ورأس الحسين فوق رمح طويل يدور ويدور وقد زلزلت الأرض زلزالها ... وارتجفت الكائنات.

وفي تلك اللحظات بدا كلّ شيء مقرفًا تافهًا لا معنى له ... وتحوّلت تلك البقعة من الأرض إلى مسرح رهيب، تتكاثف فيها مخاوف آدم كلّها وقد حاصرته الشياطين من كلّ مكان؛ ما يزال يبحث عن كهف يأوي إليه؛ والشياطين تحمل مشاعل من نار ودخان وتريد أن تحرق كلّ شيء.

القبائل المجنونة تنشبُّ النار في الخيام ... ألسنة الجحيم

تلتهم الأعمدة ... وقلوب صغيرة تفرّ مذعورة هنا وهناك كطيور هاربة من سفن تائهة غرقت في الظلام.

الخيول المجنونة تعبر جثة الحسين تستبيح كلّ ما يصادفها، لم يعد هناك شيء مقدّس. لقد تحطّم كلّ شيء ... لم يعد هناك شيء ثابت. كلّ شيء يهتزُّ تحت وقع سنابك الخيل وأقدام القبائل وقرون الشياطين.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[١٥]

كذئاب مسعورة وأنشبت أنيابها في الخيام، وقد أيقظ الشيطان شهوة الغزو والنهب في النفوس الآدميّة.

فرّ الأطفال على وجوههم، وقلوبهم تبحث عن رجل كان يحميهم. الأيدي الصغيرة تتشبَّث بالهواء، والقبائل تطارد نسوة حاسرات، والمخالب البشريّة تنتزع أقراطًا وأساور.

أنشب ذئب مخالبه في قرط لفاطمة وانتزعه بقسوة. سالت الأُذن دمًا.

كان الرجل يبكي .... تسيل دموعه ... يعبّر عن ذات منفصمة ... عن شرخ بين ضميره وإرادته، بين قلب يعرف الحقّ وأيدٍ ملوّثة تريد خنقه.

وتعجَّبت الفتاة المقهورة من دموع التماسيح:

- مالك تبكي؟

قال وهو ينتزع القرط الآخر:

- كيف لا أبكي وأنا أسلب إبنة محمّد؟!

- دعني إذًا.

صاح السامريُّ المبهور بالذهب:

أخاف أن يأخذه غيري.

واقتحمت الذئاب خيمة فيها عليّ.

جرّد الأبرص سيفًا ما يزال مضمَّخًا بدماء الحسين، كلمات الأرقط ما تزال تدوّي في أعماقه:

- لا تدعوا منهم صغيرًا ولا كبيرًا.

انبرت زينب بشجاعة والدها العظيم:

- لا يُقتل حتَّى أُقتل دونه.

هتف ذئب لم يرتطم بقعر الحضيض بعد:

- انّما هو صبي مريض.

بدا «ذو حسم» كناسك حزين أو شيخ أحنت هامته السنون، فهو ينظر ساهمًا إلى ما يجري حوله. الفضاء يمتلئ دخانًا وألسنة النار كرؤوس الشياطين تلتهم خيامًا تعصف بها الريح من كلّ مكان.

والذئاب تعوي مأخوذة بشهوة النهب.

مثل دوّامة ما لها من قرار، كانت القبائل تدور حول نسوة وأطفال؛ قلوب صغيرة خائفة كحمائم برِّيّة وسط ريح شتائيّة عاتية ودموع كلآلئ انفرطت عن نظمها، تسحّ من عيون تجمّعت فيها غيوم حزينة.

يومٌ للدماء ويوم للدموع حتَّى تطهر الأرض ويغتسل الإنسان.

لتتدفق الدموع أنهارًا تغسل كلّ الأدران الآدميّة، لتتفجر ينابيع الحزن، ليندم قابيل مدى الحياة ... ليختبئ في الكهوف والمغارات وليواري سوأته، ليطهّر يديه من دماء أخيه هابيل. ما يزال هابيل المضمَّخ بأولى الدماء البشريّة يطارده في كلّ مكان.

كمرأة اكتشفت هول جريمتها توًّا بدت الكوفة في تلك الظهيرة الملتهبة ...

نساء وأطفال ونياق وجمال هو كلّ ما غنمته القبائل من عارها الأبديّ.

كان منظر عليّ فوق بعير ضالع وقد غُلّت يداه إلى عنقه والدماء تشخب من أوداجه يجسّد وحشيّة القبائل المفتونة بالغدر.

يا لهذا الأسير الحرّ إنّه ينظر إلى ما وراء الأيّام؛ نظراته تهيمن على الحشود البشريّة المتراصّة تريد أن تصغي إلى كلمات الإنسان عندما يُقهَر، هل يخضع أم يثور؟ ولكنَّ عليًّا انتهج طريقًا آخر للمقاومة والصبر.

سكنت الأنفاس وهدأت الأجـراس، وهيمن صمت مهيب فانسابت كلمات كنبع سماويّ:

- أيّها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا عليُّ بن الحسين بن عليّ، أنا ابن من انتُهِكت حرمته، وسُلِبت نعمته وانتُهِب ماله، وسُبِيَ عياله، أنا ابن المذبوح بشطّ الفرات من غير ذحل ولا تِرات، أنا ابن من قُتِلَ صبرًا وكفى بذلك فخرًا. أيُّها الناس،

ناشدتكم اللّه، هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهود والميثاق والبيعة؟

كان الصمت ما يزال مهيمنًا يضجُّ: نعم ... نعم.

وأدرك عليٌّ ضجيج الصمت المثقل بالندم:

- فتبًّا لكم لما قدّمتم لأنفسكم، وسوأة لرأيكم، بأيّة عين تنظرون إلى رسول اللّه إذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي فلستم من أُمَّتي.

مثلما ينفجر البركان ... مثلما تنهار قشرة الأرض عن كظم الحُمَمِ الفائرة، انفجر الحشد المشدوه بالبكاء ... البكاء الذي حكي قصة التيه والضياع واليأس.

وانفتحت كوّة من أمل:

- رحم اللّه امرأً قبل نصيحتي وحفظ وصيَّتي في اللّه وفي رسوله وأهل بيته، فإنَّ لنا في رسول اللّه أسوة حسنة.

هتفت الحشود البشريَّة المتراصة، وتدفَّقت الكلمات كأجساد تتراكض نحو باب الخلاص:

- نحن يا بن رسول اللّه، سامعون مطيعون حافظون لذمامك، غير زاهدين فيك، ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرك يرحمك اللّه فإنّا حرب لحربك، وسلمٌ لسلمك، نبرأ ممّن ظلمك وظلمنا.

ما تزال الكوفة هي هي لم تتغيّر بعد. الكلمات المعسولة والوعود الفارغة، التي تعبّر عن ضمير مذعور وإرادة ميتة.

التاريخ لا تصنعه الكلمات الجوفاء والوعود الطنّانة ... تصنعه الإرادة الفولاذيَّة والقلوب التي لا تعرف غير الحقّ.

هتف عليٌّ بصوت مبحوح من الحزن:

هيهات ... هيهات ... أيّها الغَدَرة المكرة ... حيل حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم إلى أبي من قبل؟ كلّا وربّ الراقصات[1]، فإنّ الجرح لمَّا يندمل، قُتِل أبي بالأمس وأهل بيته ولم ينس ثكل رسول اللّه وثكل أبي وبني أبي، إنَّ وَجْدَهُ واللّه لَبَيْنَ لَهاتي، ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصّته تجري في فراش صدري.

(١) الراقصات ـ هنا ـ هي الإبل التي تجري بسرعة فتبدو كأنَّها تتراقص.

[١٦]

مضى التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك، ورأس الحسين على رمح طويل يطوف المدن يتحدّث بلغة الصمت.

جلس الأرقط وكان رجلًا لا يُعْرَفُ جَدُّه ... ألقى بجسمه فوق سرير مذهَّب وخيّل اليه أنّه يحكم العالم بأسره ...

بين يديه رأس مقطوع، في طست من ذهب.

ردَّد الأرقط في سِرِّه:

- لقد سكت الحسين، سكت إلى الأبد ... وها أنا أحكم العراقين.

وأردف بنفاق لكي يسمعه الآخرون:

- إنّها إرادة اللّه ... لأنّ كلّ شيء يمضي بمشيئة اللّه ... وقد قتل اللّه الحسين.

كان الصمت ما يزال مهيمنًا على المكان.

التفت الأرقط إلى فتًى مكبَّلًا بالسلاسل:

- ما اسمك؟

- عليّ بن الحسين.

- ألم يقتل اللّه عليًّا؟

- ...

فحّ كأفعى:

- مالك لا تتكلّم؟

- كان لي أخ أكبر منّي يدعى عليًّا، وقد قتله الناس.

شعر الأرقط بحدّة الصفعة فصرخ بغيط:

- بل قتله اللّه.

اللّه يتوفَّى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن اللّه.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

اتسعت عيناه كحيّة رقطاء وأشار إلى الجلّاد.

اعترضت زينب بغضب:

- حسبك يابن زياد من دمائنا ما سفكت. وهل أبقيت أحدًا إلّا هذا؟ فإن أردت قتله فاقتلني معه.

سدّد الفتى نظرة احتقار:

- أما علمت أنَّ القتل لنا عادة وكرامتنا من اللّه الشهادة؟!

نهض الأرقط وغادر المكان ولوّح بسوطه في الهواء وهتف بغرور:

- إلى السجن.

تراكض الجلاوزة، كانت حركاتهم المرتبكة تنبئ عن ذعر وذلّة لنفوس انطفأت فيها جذوة الرجولة.

حُشِرت النسوة في دار إلى جانب المسجد حوّلها الأرقط إلى سجن، واقتيد عليّ بسلاسله إلى «الطامورة».

فتح شرطيٌّ تبدو عليه الفظاظة، بابًا يفضي إلى دهليز صخريٍّ تحت الأرض ومضى الحرّاس يشقُّون طريقًا ملتويًا ضيّقًا تتفرّع عنه ممرَّات.

توقَّفوا عند زنزانة تشبه القبر، أمسك أحدهم بالأسير وحشره بقَسوة؛ ثمّ عادوا أدراجهم، وشيئًا فشيئًا غاب ضوء المشاعل، وخفتت أصداء الخطى، وغمر الظلام المكان، ولم يعد يسمع سوى صدى أنفاسه.

كنبع يتدفَّق باردًا شعر السجين بالسكينة تترقرق في قلبه وتجري في جوانح صدره؛ لا شيء سوى اللّه ... اللّه وحده الحقيقة المطلقة وما عداه أوهام وخيال. وكلّ من ينتمي إلى اللّه ستكون من نصيبه الحقيقة.

مثل بوصلة في سفينة مبحرة وسط الظلمات كان قلبه يتجه إلى اللّه ... إلى الحبيب يهتف باسمه العظيم قائلًا:

- سبحانك اللّه وحنانيك ...

سبحانك اللّهمَّ وتعاليت ...

سبحانك اللّهمَّ والعزّ إزارك ...

سبحانك اللّهمَّ والعظمة رداؤك ...

سبحانك اللّهمَّ والكبرياء سلطانك ....

سبحانك من عظيم ما أعلمك!

سبحانك سبّحت في الأعلى ... تسمع وترى ما تحت الثرى.

سبحانك أنت شاهد كلّ نجوى ...

سبحانك موضع كلّ شكوى ...

سبحانك حاضر كلّ ملأ.

سبحانك عظيم الرجاء.

سبحانك ترى ما في قعر الماء.

سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار.

سبحانك تعلم وزن الأرضين ...

سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر ...

سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور ...

سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء ...

سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرّة ...

سبحانك قدّوس قدّوس ...

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع او الطباعة

سبحانك، عجبًا! من عرفك كيف لا يخافك؟! ...

سبحانك اللّهمَّ وبحمدك ... سبحان اللّه العليّ العظيم.

ما أقوى الروح عندما تحلّق في سمائها! ... وما أشدّ صفاءها وهي تنسلّ من بين قضبان الجسد! ... إنّها تنتمي إلى عالم آخر ... عالم لا يمتُّ إلى عناصر التراب بشيء.

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[١٧]

ما أكثر الزنزانات في تلك «الطامورة»! زنزانات تشبه كهوفًا مهجورة ... أو قبورًا استيقظ ساكنوها بعد رقاد طويل.

كانوا ثلاثة ... تفصلهم عن وجه الأرض أشبار ...

قال المختار لصاحبيه وقد امتزج صوته برنين السلاسل:

- استعدَّا للموت ... أشعر بأنّ يومنا قد دنا.

هَمَسَ عبد اللّه بن الحارث:

- أجل، إنَّ هذا الطاغية لن يتهيّب من قتل الناس جميعًا، وكيف يهاب أحدًا وقد قتل الحسين ؟!

تمتم المختار بأسًى:

- الحسين ... أيمكن أن يحدث هذا ... أمر فوق التصوّر ... كيف يجرؤ إنسان على ارتكاب جريمة كهذه؟!

قال ميثم وقد كان معتصمًا بالصمت:

- ولِمَ لا ... ألم يقتل قابيل هابيل؟ ألم يحاول فرعون البطش بموسى ... وعيسى عندما أرادوا أن يصلبوه فرفعه اللّه اليه ... وعليّ ؟؟؟ أنسيتم دمه المراق في المحراب؟! ...

كلّما أتذكَّر عليًّا ... هذا الرجل العظيم ... أزداد إحساسًا بالحقائق ... ويشتدُّ إيماني بأنَّ الدنيا لا تساوي جناح بعوضة ما لم يحقّ الإنسان حقًّا أو يبطل باطلًا ...

وأردف وكأنّه يخترق الجدار الصخريَّ بنظراته:

- أبشرا بالنصر.

همس ابن الحارث بدهشة:

- عن أيّ نصر تتحدّث يا ميثم؟ أفي مثل هذه القيود؟!

هزّ المختار رأسه أسفًا:

- لقد انتصرنا يومًا ما ... أمَّا الآن فقد انتهينا وانتهى كلّ شيء.

أجاب صديق عليّ وقد تمثّلت أمامه نبوءات سمعها ذات يوم:

- كلَّا يا مختار ... نحن لم ننته ولَنْ ننتهي ... لأنَّنا مع الحقّ، والحقُّ باقٍ أبد الدهر.

وأردف كأنّه ينظر إلى صفحات المستقبل:

- ستخرج يا مختار من السجن وستنتقِم لدماء الحسين وتقتل هذا الذي يريد قتلنا وتطأ بقدميك وجهه.

وساد صمت مهيب لكلمات قالها عليّ وهو يستشرِفُ آفاق الزمن القادم.

مضت لحظات كأنّها قرون عندما دوّت خطًى ثقيلة كانت تقترب شيئًا فشيئًا ويزداد صداها وهي ترتطم بجدران الصخر حتّى باتت كأنّها تغرق العالم.

أدار الحارس الفظّ المفتاح في قفل فانفتح طرف السلسلة وبدا وجهه القاسي في ضوء المشعل كشيطان.

شقّ الحارس طريقه وانتزع سجينًا محكومًا بالموت بغلظة.

هتف المختار وهو يعني ما يقول:

- إلى أين يا ميثم؟

أجاب ميثم بهدوء:

- إلى جذع نخلة ينتظرني منذ عشرين سنة.

وأدرك المختار وصاحبه - أنّ الرجل مصلوب.

وفي قصر بُنِيَ على الظلم ...

قال «الأرقط» وهو يصعّد النظر بالسجين بازدراء:

- أهذا الأعجميُّ يكون صديقًا لعليّ؟!

أجاب أحدهم:

- أجل ... ولقد كان تمّارًا يبيع التمر في السوق.

سأل الأرقط باستخفاف:

- أين ربّك؟

أجاب السجين:

إنّه بالمرصاد.

- هل أخبرك أبو تراب عن مصيرك؟

- إنّي لأعرف النخلة التي سأُصلب عليها ...

لأكذّبنَّه.

- أتكذّب وصيّ محمّد؟!

صرخ الأرقط بعصبيَّة:

- أعيدوه إلى السجن:

واستدرك وهو يلوِّح بسوطه:

- بل اصلبوه وألحِقوه بأصحاب أبي تراب.

ابتسم السجين وهو يتطلّع إلى رجل سيسقط رأسه الفارغ عند أقدام الثائرين.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[١٨]

الطريق بين الكوفة ودمشق مترع بحزن مرير لمن يعرف الصراع بين المدينتين.

لاح الفرات من بعيد حيّة ترقد وسط الصحراء، وقد نهضت على جانبيها النخيل كرماح مركوزة.

أشار الدليل إلى بقعة قرب منعطف الفرات وهتف، ربَّما لينبش ذكريات قديمة:

- ها هو صِفِّين.

بدا السهل المنبسط الممتدُّ على مدى الشطآن مقفرًا تمامًا. لقد اختاره القدر ذات مرّة ليكون ميدانًا للصراع ومسرحًا للاختيار بين عليّ ومعاوية ... بين الروح والغريزة...

غير أنّ النفوس التي أخلدت إلى الأرض اختارت معاوية، وظلّ عليٌّ وحيدًا مضمَّخًا بالدماء وهو يصلّي للّه في المحراب.

كان الأبرص ينظر برعب إلى صفين . ارتجف شاربه الكثّ ... شعر بأنَّ يزيد يتطلّع إليه بغيظ وحقد؛ لأنّه كان جنديًّا يومًا ما في جيش عليّ. تمتم في سرِّه:

- لقد مضت عشرون سنة ... وهي كافية لتمسح الماضي البعيد، وها أنا أحمل رأس ابن عليّ هديَّةً إلى ابن معاوية.

بدا رأس الحسين في ذروة الرمح يتطلّع إلى الأفق البعيد كأنّه ينظر إلى آخر الدنيا.

أشار الدليل للاستراحة في مكان على الشاطئ ... ليكون محطَّة لاستراحة الخيول ... والأسرى ...

جحظت عين الأبرص حقدًا ونَهَرَ الدليل بفظاظة ...

- ألم تجد مكانًا غير هذا؟!

- إنَّه مكان كثيف الظلال ... ومياه النهر سهلة الورود، والخيل سريعة التعب.

صعَّد الأبرص نظره في الدليل:

- لعلّك أشفقت على الأسرى؟

أجاب الدليل وهو يتطلّع إلى الفتى المغلول:

- لقد حيّرني صمته ... انظر إليه، إلى سكينته، إلى بريق عينيه.

- كفى هراءً ... أنت لا تكفّ عن الثرثرة ...

مشى الدليل إلى الفتى المكبّل بالسلاسل.

صرخ الأبرص وقد أدرك ما يرمي إليه:

- ماذا تفعل أيّها الأحمق؟

- أفك عنه الأغلال ليستريح قليلًا.

- إذن أُلهِبَ ظهرك بالسياط.

هرعت الخيول إلى الشاطئ لترتاد المياه المتدفِّقة.

وبركت النوق في الظلال.

كان الدليل يفكّر بطريقة لمساعدة الفتى وهو يسير باتجاه الشاطئ.

توقَّف عليٌّ عند جذع نخلة وراح يتأمّل الأمواج المتدافعة وهي تتألّق في ضوء النهار ... تمثّلت أمامه مشاهد من يوم طويل ... يوم شهد الفرات الزاخر بالمياه ملحمة الظمأ ... ودوّت في أُذنيه أصداء الأطفال وهُم يهتفون: العطش ... العطش.

جلس الفتى عند حافَّة النهر ولامست المياه قدميه الملتهبتين ... تطلّع إلى نقطة في سماء بعيدة الغور ... وتمتم بكلمات. تساقطت السلاسل من يديه وغاص أحد طرفيها في الماء ....

تسمّر الدليل في مكانه، وسقط فكّه الأسفل دهشة ... ظلّ مبهوتًا وهو يتطلّع بعينين مفتوحتين انبهارًا إلى المياه، وهي تنثال من بين كفيه ...

أتمّ الفتى وضوءه ثمّ أخذ غرفة ليشرب. أدناها من فمه. ولمّا همّ بالشرب توقّف كلّ شيء ... لكأنّ شيئًا عظيمًا حال بينه وبين أن يروي كبدًا حرّى ...

طوّح الفتى بقبضة الماء ... ثمّ أدخل يديه في القيود فعاد مغلولًا.

هتف الدليل مأخوذًا بما يرى:

- ألست ظامئًا يا سيِّدي؟

- أجل.

- فلِمَ لا تشرب إذًا؟

- تذكّرت ظمأ الحسين ... وعطش أطفال صغار ... وتساقطت الدموع من عينيه فولّى وجهه شطر نخلة ميساء؛ وانبثق عند جذعها شلّال من الصلاة.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
كلمات
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[١٩]

بدت دمشق ذلك الصباح عجوزًا تتصابى، لم تترك من دهون الزينة لونًا إلّا طلت وجهها به.

تجمهر الدمشقيّون عند باب «الساعات».

ثلاث مرّات أخرجت الحيّة النحاسيّة رأسها المثلّث، أسقطت ثلاث حصوات في الإناء النحاسيّ، وكان غراب من نحاس يشير إلى الوقت من دون اكتراث.

وأطلّت القافلة أخيرًا. كان رأس آخر الأسباط في ذروة رمح طويل يتقدّم أعجب موكب في التاريخ.

تطلّع رجل عجوز إلى فتى القافلة الوحيد وهتف ببلاهة المخدوعين:

- الحمد للّه الذي أهلككم وأمكن أمير المؤمنين منكم.

نظر الفتى إليه وخاطبه بإشفاق:

- أقرأت القرآن يا شيخ؟

أجاب العجوز مأخوذًا:

- أجل.

- أوجدت فيه هذه الآية «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودّة في القربى»؟

- نعم ... ماذا تعني؟

- نحن القربى يا شيخ ... فهل قرأتَ: «إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرًا»؟

- نعم قرأتها.

- نحن أهل البيت يا شيخ.

هتف الشيخ مأخوذًا.

- باللّه عليك أنتم هم؟!

- نعم، وحق جدّنا رسول اللّه، إنّا لنحن هم.

شعر العجوز بالأرض تدور به . تهتزّ تحت قدميه.

مرّت لحظات رهيبة كانت كافية لأن تجتمع في أعماقه آلاف الغيوم الممطرة فانفجرت الدموع من عينيه الكليلتين:

- أبرأ إلى اللّه ممّن قتلكم.

وما أسرع ما تخطَّفته الكلابُ المسعورة.

وتساءلت امرأة دمشقيّة:

- من أيّ السبايا أنتم؟

تمتمت ابنة للحسين وكان اسمها سكينة:

- نحن سبايا آل محمّد.

وأردفت وهي تتطلّع إلى رؤوس في ذرى الرماح:

- هذا رأس أبي وعمومتي ورجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه.

انعقد لسان المرأة دهشة ... وبدا لها أَنَّ ما تسمعه ألغاز وطلاسم.

كمن يبحث عن ظلّه في يوم غائم كان «سهل» يحثّ خطاه إلى «باب الساعات». تساءل في سِرِّه وهو يقلّب بصره في مظاهر الزينة التي بدت مفتعلة بعض الشيء:

- أيكون لأهل الشام عيد لا نعرفه؟

وسأل شيخًا مرق من أمامه:

- هل الناس في عيد يا شيخ؟

تلفَّت العجوز وقال بصوت هامس:

- لعلّك غريب؟

- أنا سهل بن سعد الساعديّ ممّن رأى الرسول وسمع حديثه.

دمعت عينا الشيخ وقال بحزن:

- ماذا تقول يا صاحب رسول اللّه؟ الساعة سيأتون برأس الحسين ورؤوس القتلى من أهل بيته.

شعر «سهل» بدويّ الانهيارات في أعماقه ... صرخة تدوّي في صدره: يا محمّد ... يا رسول اللّه ...

بدا سهل مذهولًا وهو يتطلّع إلى موكب لم يخطر في باله أن يراه يومًا ما.

كان رأس الحسين يتقدّم القافلة على رمح طويل.

كما تستيقظ الحمائم في الفجر هبّت الذكريات القديمة الملوّنة جميلة.

كان محمّد يحتضن حفيده يشبعه قبلًا، والحسين بسنيه الخمس يداعب سوالف جدّه العظيم وأصابعه الصغيرة تغوص في شعره المتموِّج تموّج الصحارى؛ وانبعثت كلمات تتألّق مثل ندى الصباح: حسين منِّي وأنا من حسين.

وجد سهل نفسه يهتف مبهورًا كأنّه قطع الصحراء:

- يا حسين!

وضاع صوته بين دويّ الطبول وزعقات الأبواق تملأ فضاء المدينة.

كلمات للطباعة والنشر لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٢٠]

الطريق إلى قصر الخضراء تحفّه بيارق ملوّنة حمراء وصفراء وقد اصطفَّ مسلّحون على جانبي الطريق ... والموكب العجيب يمضي قدمًا إلى قصر أُسِّسَ بنيانه على الظلم.

غير مخصص للبيع أو الطباعة

وفي بوابة القصر توقَّفت القافلة وجيء بالحبال فربق بها آل الرسول، وضعوا طرفًا منها في رقبة فتى في العشرين، ثمّ في رقبة زينب بنت عليّ، ثمّ في باقي بنات محمّد، وكلّما تعثّر الأسرى في طريقهم انهالت عليهم السياط من كلّ جانب.

كان يزيد جالسًا ينظر باستعلاء، ونشوة الإنتصار تطلّ من عينيه.

هيمن صمت رهيب لم يعهده القصر من قبل ... صمت الأسرى ملأ فضاء القصر بأشياء يحسّها المرء في أعماقه.

عدّل يزيد من جلسته. كان ينتظر كلمات الاستعطاف أو كلمات تذكِّر بالنصر.

أراد الخليفة الجديد أن يجعل من نصره حقيقة فخاطب فتى القافلة الوحيد:

- كيف رأيت صنع اللّه بأبيك الحسين؟

وجاء الجواب صاعقًا:

- رأيت ما قضاه اللّه قبل أن يخلق السموات والأرض.

أدرك يزيد أنّ هذا الفتى فرع من تلك الزيتونة؛ فهمس في آذان مشاوريه.

كانت العيون حمراء بلون الدماء تحمل نُذُر الموت ويطلّ منها حقدٌ قديم.

- اقتله يا أمير المؤمنين ... إنّه يضمّ قلب أبيه في جوانح صدره.

فهتف الفتى بصلابة الأنبياء:

- يا يزيد، لقد أشار عليك هؤلاء بخلاف ما أشار به جلساء فرعون عليه حين شاورهم في موسى وهارون فإنّهم قالوا له: أرجِهِ وأخاه ...

وأردف غير مكترث بالموت الذي يُحدِق به من كلّ مكان:

- ولا يقتل الأدعياء أبناء الأنبياء.

وعاد يزيد مرّة أخرى يتحدّث كخليفة فقال بنفاق:

- ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم.

أجاب الذي عنده علم الكتاب:

ما هذه نزلت فينا؛ إنما نزل فينا: ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها إنَّ ذلك على اللّه يسير لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. فنحن لا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا.

انتفض يزيد كالملدوغ وقد سقط عنه وقار مصطنع:

- مهلًا بني عمّنا مهلًا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونًا.

صرّ على أسنانه بحقد ولعن في سِرِّه ابن زياد، ذلك الأحمق لأنّه نسي أن يخمد صوت الحسين.

أشار يزيد إلى رجل باع دينه بدنيا غيره.

نهض واعظ السلطان ورَقِيَ منبرًا مسروقًا، وراحت الكلمات المسمومة الملوّثة بالصديد تتدفَّق من فمه يحاول أن يطفئ الشمس والقمر والنجوم ويجعل من النفايات حدائق بنفسج، ولكن أين الثرى من الثريَّا وأين معاوية من عليّ.

هتف الفتى كَبُرْ كان غاضب:

- لقد اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوّأ مقعدك من النار.

والتفت إلى يزيد:

- أتأذن لي أن أرقى هذه الأعواد فأتكلّم بكلام فيه للّه تعالى رضًا ولهؤلاء أجر وثواب؟

شعر يزيد بالخوف يحاصر قلبه وهتف مذعورًا:

- كلّا ... كلّا.

قال «معاوية» وكان فتًى لم يبلغ العشرين بعد وفي عينيه بريق اكتشاف:

- ائذن له يا أبي ... وما قدر أن يأتي به.

همس يزيد محذّرًا:

- إنّ هؤلاء ورثوا العلم والفصاحة وزُقُّوا العلم زقًّا ... ولا ينزل من المنبر إلّا بفضيحة آل أبي سفيان.

وعلت صيحات من الحضور، وقد بهرتم شخصيَّة الفتى:

- ائذن له يا أمير المؤمنين.

سكت يزيد مستسلمًا ... وَرقِيَ الأسير المنبر ...

يتفجّر من فوقه نبع من الفصاحة والبلاغة والحكمة، وانسابت الكلمات كنهر هادئ تتدافع أمواجه متألِّقة في ضوء النهار:

- الحمد للّه الذي لا بداية له، والدائم الذي لا نفادَ له، والأول الذي لا أوّليّة له، والآخر الذي لا آخريّة له، والباقي بعد فناء الخلق، قدّر الليالي والأيّام، وقسّم

فيما بينهم الأقسام، فتبارك اللّه الملك العلّام.

أيُّها الناس أُعطينا ستًّا وفُضِّلنا بسبع، أُعطينا: العلم والحِلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبّة في قلوب المؤمنين، وفضّلنا: بأنّ منّا النبيّ والصدّيق والطيّار، وأسد اللّه وأسد رسوله وسبطَيْ هذه الأُمّة.

أيُّها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي ... أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا.

أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرِّدا

أنا ابن خير من ائتزر وارتدى
وخير من طاف وسعى، وحجّ ولى

أنا ابن من حُمل على البراق وبلغ به جبريل سدرة المنتهى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوصى إليه الجليل ما أوصى، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول اللّه ببدر وحنين، ولم يكفر باللّه طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النبيِّين ويعسوب المسلمين ونور المجاهدين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ومفرّق الأحـزاب، أربطهم جأشًا وأمضاهُم

عزيمة ... ذاك أبو السبطين الحسن والحسين عليّ بن أبي طالب ...

أنا ابن فاطمة الزهراء، وسيّدة النساء. أنا ابن خديجة الكبرى ...

مَنْ يوقف هذا النبع المتدفِّق؟ من يخمد هذا البركان المتفجّر حممًا؟ من يكفّن هذه الشمس بأكوام الغيوم؟

وعندما تبكي الغيوم وتسحّ دموعها الثِّقال، فإنّها تذوب لتسطع الشمس ... شمس الحقيقة ... وهكذا أراد ذلك الأسير العظيم.

كلماته ما تزال تدوّي:

- أنا ابن المرمّل بالدماء،
- أنا ابن ذبيح كربلاء،
- أنا ابن من بكى عليه الجنّ في الظلماء، وناحت الطير في الهواء.

كان عرش يزيد يهتزّ بشدّة وقصره يميد ...

صرخ الخليفة بعصبيّة أذّنوا للصلاة.

حيلة تعلّمها من عمرو بن العاص يوم رُفِعَت المصاحف في صفين تفاديًا للعاصفة.

هتف المؤذِّن:

- اللّه أكبر.

عقّب الفتى بخشوع المؤمنين:

- اللّه أكبر وأجلّ وأعلى وأكرم ممّا أخاف وأحذر.

وانساب الآذان:

- أشهد أن لا إله إلّا اللّه.

تمتم الأسير:

- نعم أشهد مع كلّ شاهد أن لا إله غيره ولا ربّ سواه.

- أشهد أنّ محمّدًا رسول اللّه.

التفت ابن محمّد مخاطبًا يزيد:

- هذا الرسول العزيز الكريم جدّك أم جدّي؟ فإن قلت: جدّك علم الحاضرون والناس كلّهم أنّك كاذب، وان قلت جدّي فلِمَ قتلت أبي ظلمًا وعدوانًا وانتهبت ماله

وسبيت نساءه؟! فويل لك يوم القيامة إذا كان جدّي خصمك.

صَرَخَ يزيد بالمؤذن:

- أقم الصلاة.

وسرت همهمة وطفحت الأسئلة على الوجوه، كما تظهر الفقاعات فوق سطح ماء أصابه مسّ من الغليان.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٢١]

غيوم الخريف تعبر سماء دمشق ... تبعثرها الرياح كسفن تائهة؛ وأضحت السماء ميدانًا لخيول مجنونة، أو لوحة تتراكم فيها أكوام الغيوم كما تشاء الريح، تشكَّلت بحيرات زرقاء وتلال وخلجان لا حصر لها، وبدت غيمة بيضاء على شكل حصان ترتاد الشواطئ القطنيّة، غير أنّ الريح سرعان ما دفعتها لتذوب في أكوام الرماد، اختفت البحيرات وتراكمت جبال السحب الداكنة بعضها فوق بعض اندثرت الشواطئ الناصعة تحت أكوام الرماد والرياح الخريفيّة تبشّر بشتاء قارس وصقيع.

كان «المنهال» يراقب من بعيد خربة تشبه سجنًا قديمًا أُنزل فيها الأسرى.

جلس يصغي إلى أوَّل مناحة لعاشوراء في دمشق ...

كان اسم الحسين يرتفع يتألّق في الفضاء ... يتناغم مع نداء الآذان يعانق اسم جدّه العظيم محمّد.

- هو ذا.

هتف المنهال وقد لاح من بعيد فتى القافلة الوحيد ...

وجهه المضيء كقمر حزين ... كأنّه يحمل على كتفيه هموم الدنيا وأحزان العالم كلّه.

هرع اليه لعلّه يخفّف من أحزانه شيئًا:

- كيف أمسيت يا ابن رسول اللّه؟

تجمّعت الدموع في عينيه كغيوم مشحونة بالمطر:

- أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

سكت هنيهة وأردف

- أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّدًا منها، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأنّ محمّدًا منها، وأمسينا معشر أهل بيته مقتولين مشرّدين ... فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

وقال الرجل وهو يحاوره:

- أخشى عليك كثرة البكاء.

أجاب الفتى وهو يخترق السحب بنظرات متأملة:

- إنّما اشكو بثّي وحزني إلى اللّه وأعلم من اللّه ما لا تعلمون ... إنّ يعقوب كان نبيًّا فغيّب اللّه عنه واحدًا من أولاده وعنده اثنا عشر وهو يعلم أنّه حيّ فبكى عليه حتّى أبيضَّت عيناه من الحزن ... وإنّي نظرت إلى أبي وأُخوتي وعمومتي وصحبي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني؟! ... كلّما نظرت إلى عمّاتي وأخواتي تذكَّرت فرارهنّ من خيمة إلى خيمة.

اشتعل المشهد العاشورائيّ بكلّ تفاصيله ... يا له من يوم عصيب ... النار المجنونة تلتهم كلّ شيء ... الخيام تحترق والأعمدة تتهاوى حطبًا ... وقد فرّ الأطفال ... قلوبهم تدقُّ مثل حمائم مذعورة. ونسوة وفتيات يَلُذْنَ من خيمة إلى خيمة أُخرى والنار تفتح أفواهًا شيطانة تريد ابتلاع كلّ الأشياء الخضراء.

فجأة! ظهرت إمرأة تتَّجه نحو الستين بخطى واسعة. نادت بصوت بحّ من البكاء:

- إلى أين يا نعم الخلف؟

أسرع الفتى إليها.

أدرك المنهال أنّها زينب ... زينب التي وقفت بوجه العاصفة.

هل يكون عاشوراء خلاصة لكلّ تاريخ النبوّات في الأرض بكلِّ الجراح، بحجم الصبر، بفورة الدماء ... وتألّق حبّات الدموع؟!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٢٢]

- إلى كربلاء

همس الفتى في أذن الدليل، وقد انفصلت القافلة عن ديار الشام في رحلة العودة إلى أرض الحجاز.

منذ ذلك التاريخ ستصبح تلك البقعة على شطآن الفرات مقصدًا للقوافل الجديدة ومحطّة لقوافل أخرى.

كان على الدليل أن يسلك طريقًا آخر غير طريق التّجار وبعيدًا أيضًا عن طريق البريد، حيث تمُرُّ الخيول سريعة تحمل الأنباء الهامّة.

وانسابت القافلة مثل ضفيرةٍ من حرير في بطون الأودية متَّجهة صوب «عين الوردة» أولى محطّات الطريق الجديد.

بركت النوق في «عين الوردة» ثمَّ في «قرميسيا» وبعدها

«الأنبار» ثم يمَّمت وجهها شطر بقعة على ضفاف الفرات ... بقعة ستشهد ميلاد مدينة ما تزال في مخاض الزمن.

آن «للرأس» أن يعود بعد رحلة دامت أربعين يومًا.

آن للرأس الذي طاف المدن فوق ذرى الرماح أن يعود بعد أن رتّل القرآن ترتيلًا.

عاد رأس السبط بعد أن أيقظ الإنسان في النفوس الآدميّة ... وفي الأرض البذور.

كان الشفق داميًا كجراح الأنبياء عندما وصلت القافلة إلى كربلاء.

آثار الخيول ما تزال محفورة في الأرض والتاريخ وفي ذاكرة الإنسان ...

سهام مغروسة في الرمال ... سيوف مهشَّمة وبقايا رماد.

قفزت الحوادث الرهيبة إلى الذاكرة ... تجسّدت في العيون ... وتردَّد صداها في القلوب.

هرولت «الرِّباب» إلى كومة رمل صغيرة. ضمَّت رضيعها الشهيد. احتضنت الرمال الناعمة ... هتفت بقلب كسير:

هلّم إليّ يا صغيري.

وتساقطت قطرات من دمع ومن لبن رسمت في الثرى نقاطًا نديَّة صغيرة.

كان الرضيع غافيًا في أحضان الأرض التي لوّنها بدمه الرائق. وعندما هوّمت عيناها، رأت نافورة ماء تنبجس من نحر الشهيد ...

كان الأطفال يدورون بين القبور كحمائم برِّيّة تبحث عن أعشاشها.

من بعيد لاح «جابر» ... رجل آزر النبيَّ ونصره وجاء اليوم يجدّد العهد مع سبطه.

شمّ جابر رائحة النبيّ فهوى يقبّل قبر الحسين:

- يا حسين ... يا حسين ... أشهد أنّك قد مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريَّا ...

هتف الفتى وقد تجمّعت في عينيه الدموع:

- يا جابر، هاهنا واللّه قُتِلَتْ رجالنا ... وذُبِحت أطفالنا وسُبِيَت نساؤنا وحُرِقَت خيامنا.

نهض جابر ينوء بحمل السنين ... أجال بصره الواهن في القبور وهتف كأنّه يخاطب التاريخ والإنسان:

- السلام عليكم أيَّتها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين وأناخت برحله ... أشهد أنّكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم اللّه حتّى أتاكم اليقين ... والذي بعث محمّدًا بالحقّ نبيًّا، لقد شاركناكم في ما دخلتم فيه.

قال رجل وقد اتسعت عيناه دهشة:

- كيف ولم نهبط واديًا ولم نَعْلُ جبلًا ولم نضرب بسيف؟!

وتدفَّقت كلمات قالها محمّد ذات يوم:

- سمعت حبيب رسول اللّه يقول: من أحبّ قومًا كان معهم ومن أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم ... والذي بعث محمّدًا بالحقّ نبيًّا ان نيَّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه.

كانت الشمس على وشك المغيب وقد بدت حمراء

حمراء كعين تسحّ دموعًا ثقالًا.

مسح جابر وجهًا كان قد تعفّر بتراب الحسين ... تمتم بحديث لحبيبه كان قد سمعه قبل أكثر من خمسين سنة، كان النبيُّ يداعب صبيًّا في ربيعه الخامس ويقول: حسين منِّي وأنا من حسين.

هتف جابر وسط الصمت، وكان الفرات يجري تتدافع أمواجه:

- أشهد أنّي قد سمعت ذلك من حبيبي محمّد.

غابت الشمس خلف الرمال الممتدّة، ونشر المساء ستائره الرماديّة فوق الأرض، وانبرى رجال يدقّون أوتاد خيام صغيرة ... فزينب تريد البقاء إلى جانب أخيها الحسين.

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٢٣]

غادر يزيد قصر الخضراء تحوطه كلاب الصيد التي ملأت الفضاء نباحًا. ملأ رئتيه من نسمات الصباح الباردة كما لو يريد إطفاء حرقة الخمر التي ما تزال تشتعل في أعماقه. ألقى نظرة استعلاء من فوق حصانه الأسود على مرافقيه وأدار بصره فيهم متصفِّحًا وجوههم. وفي تلك اللحظة مرّ قطيع هائل من الخيول العربيّة الأصيلة ...

راحَ يتابع القطيع الممتدَّ في الأُفق وهو يتجه صوب بلاد الرومان؛ فيما وقف سفير القيصر يشرف على نقل الإتاوة السنويَّة المفروضة على المسلمين إلى بلاده.

هزّ يزيد كتفيه من دون اكتراث وألهب ظهر حصانه بالسياط، فانطلق موكب الصيد تحفّه الكلاب من كلّ صوب.

أمعن يزيد هذه المرّة في البادية مقتربًا من تخوم العراق حيث تكثر الغزلان.

هذه أوّل رحلة للصيد يقوم بها في خلافته، فلتكن لها أُبَّهة الملك وفخامة السلطان العريض، وقد آن له أن يحتفل بنصره الأوّل.

دبّ المساء كحشرة متلصِّصة، وقد انتهى رجاله من دقّ أوتاد الخيام.

كان يزيد يداعب قرده «قبيس». قرصه من مكان حسّاس فنزّ القرد مذعورًا، فأطلق يزيد ضحكة ماجنة أودعها شعورًا مفرطًا بأهمِّيَّته.

ألقى بنفسه بين الطنافس الحريرية وراح ينظر إلى آنية الخمرة المختلفة الألوان والأشكال.

أمسك بعنق ابريق ذهبيّ صغير وأفرغ ما فيه في جوفه ... شعر بدبيب النمل يتخلل عروق جسده ويداعب رأسه ...

احمرّت عيناه ... أطلق ضحكة شيطانيّة جعلت «قبيس» ينظر إليه بخوف.

نشر الليل ستائره الكحليّة وبدت صفحة السماء تزخر

بالنجوم كمصابيح فضِّيَّة أو لآلئ متناثرة في بحر شديد الظلمات.

أخذ الحرّاس مواقعهم يحرسون خيمة فيها قردة وخنازير؛ كؤوس الخمرة تدور وتدور. وبين الفينة والأُخرى يعلو صوت قرد أو ضحكة ماجنة، والليل ظلمات يتراكم بعضها فوق بعض؛ والنجوم تشتدّ سطوعًا تبشّر بفجر قريب.

كلّ شيء يمضي على سنّة الناموس إلّا ما يفعله ابن آدم منذ سوّلت لقابيل نفسه قتل أخيه.

استيقظ يزيد، بل هبّ مذعورًا. منذ أيّام والكوابيس تلاحقه...

فتح عينيه الداميتين وغادر الخيمة مترنّحًا.

كانت الشمس على وشك أن تشرق بحمرتها القانية، فالشفق مضمَّخ بلون يشبه الدماء.

هتف أحدهم وقد رأى صاحبه يريد إعادة صلاته.

- ماذا تفعل؟!

- لقد نسيت لعن أبي تراب في القنوت.

- أوه ... إنّها لا تُقبَل منك.

قهقه يزيد وهو ينتبذ مكانًا قريبًا لقضاء حاجته.

أرسلت الشمس أشعَّتها الخريفيّة الواهنة، فبدت الفلاة مدّ البصر شفَّافة.

امتطى يزيد صهوة الحصان وألقى نظرة افتراس قبل أن يلهب ظهر الجواد بالسوط معلنًا بداية الجولة.

بدا وجهه المجدور في أشعة الشمس مقيتًا كحيوان متنمّر.

أمعن يزيد في البادية جنونًا والكلاب خلفه تملأ الفضاء نباحًا. وشيئًا فشيئًا خفّ صوتها ولم يبق إلّا صدى سنابك الحصان وهو يطوي المسافات الطويلة.

ظهرت شجيرات صغيرة إلى جانب ربوة؛ شدّ زمام الحصان بعنف، ولوى رقبته باتجاهها، راح الحصان يخطر ببطء.

القى يزيد نظرات مشتعلة تلهب المكان وأرهف أُذنيه إلى خشخشة الأشواك، فجأة! ظهرت ظبية مذعورة ومعها صغيرُها، وقد بدا غير مكترث لما يرى.

استلّ يزيد سهمًا ووضعه في كبد القوس، ضيّق إحدى عينيه وجعل امتداد النصل فيما بين عيني الظبية؛ ثمّ عدل عن فكرته. نقل اتجاه النصل إلى الصغير واختار أسفل رقبته الصغيرة. أفلت السهم فانطلق يشقّ طريقه الثاقب في الهواء إلى رقبة الصغير الذي تراخت قدماه الأماميَّتان، فهوى جانبًا فوق الأرض.

سدّد الصيّاد سهمًا آخر صوب الأمّ التي فرّت مذعورة خلف الربوة، ثمّ اتَّخذت طريقها في بطن الوادي ممعنة في الفرار.

اختبأ الصيّاد خلف شجيرات الشوك بعد أن ربط حصانه في مكان قرب الربوة وظلّ يترقّب.

كلّ شيء كان هادئًا ما خلا نسمات رقيقة تداعب الشجيرات الشوكيّة المتناثرة هنا وهناك.

ظهرت الظبية من بعيد تخطو باتجاه الصغير خائفة تترقّب؛ حرّكت أُذنيها تمسح المكان حـدَّت عينيها الحوراوَيْن تستكشف الخطر.

كان الصغير يدعوها ... فراحت تقترب رويدًا رويدًا ... راحت تمسح الجرح برفق.

وضع الصيّاد القاسي سهمًا في كبد القوس وسدّد باتجاه عين حوراء.

ثبت السهم الغادر في العين فانطفأت وانكفأت الظبية إلى الوراء وقد أصابها مسّ من الجنون يكشف عن حجم الآلام الرهيبة التي تفجّرت في رأسها.

كان الصيّاد يراقب منتشيًا فريسته التي راحت تدور في الأرض قبل أن تسقط إلى جوار صغيرها الذي ودّع الحياة هو الآخر.

في المساء تصاعدت رائحة الدخان ممتزجة برائحة الشواء وعلت قهقهات وَحْشٍ بشريٍّ ينهش متلذِّذًا اللحم المشويَّ ويكرع كؤوس الخمر.

[٢٤]

الصحراء مدّ البصر بتموُّجات الرمال وخشخشة الأشواك. والقافلة التي حطّت رحلها ثلاثة أيّام في كربلاء تنساب في بطون الأودية في طريقها إلى المدينة المنوَّرة من أرض الحجاز.

قافلة عجيبة أُريد لها أن تصحِّح مسار الإنسان ... ليس فيها الآن إلّا نسوة وأطفال وفتًى وحيد قد ذرّف على العشرين.

إنّها تشقّ الطريق صوب وطن فارقته مذعورة وتعود إليه اليوم مقهورة ... تترك آثارها في المحطات المتعاقبة وفي التاريخ.

كان لها موقف في «عذيب الهجانات» وفي «الرهيميّة»،

وفي «البيضة» وفي «شـراف» وفي «بطن العقبة» وفي «الشقوق» وفي «الثعلبيّة» وفي «زرود» وبعدها في «الخزيميَّة» ثمّ في «الحاجر» وفي «ذات عرق» وفي كلّ المواقف التي مرّت بها القافلة يوم رام الحسين تصحيح مسار التاريخ البشريّ.

ولمّا وصلت القافلة قريبًا من «ثنيّات الوداع» ألقت برحلها.

التفت الفتى إلى رجل كان قد التحق بالقافلة في عرض الطريق:

- يا بشير، رحم اللّه أباك لقد كان شاعرًا فهل تقدر على شيء منه؟

أجاب ابن حذلم:

- بلى يا ابن رسول اللّه إنّي لأقول الشعر.

- أدخل المدينة إذًا وانع أبا عبد اللّه.

انطلق الفارس صوب المدينة بشيرًا ونذيرًا، وإلى جانب المسجد انطلقت صرخة هزّت المدينة والإنسان والتاريخ:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها.

قُتل الحسين فأدمعي مدرار

الجسم منه بكربلاء مضرّج

والرأس من فوق القناة يدار

إن هي إلّا صيحة واحدة فإذا هم من البيوت إلى المسجد ينسلون.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

هتف أحدهم مدهوشًا:

- ماذا وراءك؟!

غير مخصص للبيع أو الطباعة

صاح الفارس كأنّه يخاطب العالم بأسره:

- هذا عليّ بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم وأنا رسوله اليكم أُعرّفكم مكانه.

طفحت أسئلة متعجِّبة ... خائفة ... قلقة:

- والحسين والرجال؟!

- لقد قُتِلوا جميعًا صرعتهم القبائل والرماح ... والظمأ...

- أين؟!

- على شطآن الفرات في أرض تدعى كربلاء.

خرج أهل يثرب إلى عرض الصحراء كأنّهم يلبّون نداءً من وراء ستار الغيب.

نهض الفتى ينوء بنفسه تخنقه العبرات وتضبّب رؤيته الدموع ...

وُضِع له كرسيٌّ خارج الخيمة فتهالك فوقه، يستقبل آلاف الكلمات المعزّية. كانت المدينة تبكي، الأرض والحجارة، وقلب الإنسان.

آن للمدن أن تغسل إثمها وعارها، آن للأرض أن تطهّر ثراها، وآن للإنسان أن يقول كلمته.

أومأ نجل الحسين إلى الناس أن اسكتوا فلما اشرأبّت الأعناق قال:

- الحمد للّه ربِّ العالمين الرحمن الرحيم ... مالك يوم الدين بارئ الخلائق أجمعين. الذي بَعُد فارتفع في السماوات العلى، وقَرُبَ فشهد النجوى. نحمده على عظائم الأُمور وفجائع الدهور، وألم الفجائع

ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء. إنّ اللّه تعالى – وله الحمد – ابتلانا بمصائب جليلة وثلمة في الإسلام عظيمة.

سكت الفتى هنيهة ليروي روح الملحمة:

– قُتِلَ أبو عبد اللّه الحسين وعترته، وسُبِيَت نساؤه وصِبْيته، وداروا برأسه في البلدان.

وأردف معلنًا نهاية زمن الفرح وبداية حزن الإنسان:

– فأيُّ رجالات منكم يُسَرّون بعد قتله؟ أم أيُّ فؤاد لا يحزن من أجله؟! أم أيّة عين منكم تحبس دمعها وتضنّ عن إنهمالها؟!

لقد بكت السماوات الشداد لقتله

وبكت البحار بأمواجها. والأرض بأرجائها

والأشجار بأغصانها. والحيتان في لجج البحار

والملائكة

وانهمرت الدموع غزيرة كسماء حزينة توشك أن تقول:

– وبكاه الإنسان.

بركت النوق عند مسجد النبيّ توقظ في الذاكرة يومًا بركت فيه «القصواء».

هتفت زينب وهي تأخذ بعضادتي المسجد:

- يا جدّاه! إني ناعية إليك أخي الحسين.

وصاحت سكينة:

- يا جدّاه إليك المشتكى ممّا جرى علينا ... فواللّه ما رأيت أقسى من يزيد ولا رأيت كافرًا ومشركًا شرًّا منه وأجفى ولا أغلظ ... كان يقرع ثغر أبي بمخصرته ويقول: كيف رأيت الضرب يا حسين؟!

تساءل رجل بشماتة:

- من الغالب؟

فأجاب فتى الحسين يعلّمه سرّ النصر ومعنى الإنكسار:

- إذا دخل وقت الصلاة فأذّن وأقم تعرف الغالب.

وسكت الرجل الشامت لا يدري ما يقول.

[٢٥]

عندما ينهار السدّ يتحوّل الماء الهادئ إلى سيل تفقد الأشياء فيه استقرارها وثباتها، فالأرض تهتزُّ تحت الأقدام أصابها زلزال، والبحر أمواج غاضبة، والسماء مكفهرّة مخزونة بالبرق وبالرعود. لم يعد هناك شيء ثابت، كلّ الأشياء تهتزُّ بشدّة. أصابها مسّ من الجنون. لم يعد هناك معقول ولا غير معقول، كلّ شيء مستباح أمام خيول الغازي يزيد.

هتف ابن غسيل الملائكة وقد التفّ حوله أهل يثرب:

- أخشى أن تمطرنا السماء بالحجارة ... إنّه رجل ينكح أُمَّهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر حتَّى يدع الصلاة.

همس أحدهم متأسِّفًا:

- وقتله الحسين سبط محمد وسبي نسائه وعياله من بلد إلى بلد.

قال ابن حنظلة:

- أجل واللّه لأُقاتلنَّ حتّى لو لم يبق معي أحد.

كانت السماء تنوء بغيوم شتائيّة، والرياح تهبّ من ناحية الشمال، والأرض حبلى بالحوادث، والأنباء تترى عن جيش قوامه ثلاثون ألف شاميّ يزحف باتجاه المدينة المنوَّرة يحمل في طواياه الويل والثبور.

الغيوم السوداء تعبر السماء كسفن تعصف بها ريح غاضبة.

يثرب تستعدُّ للمواجهة وقد انبرى الرجال لحفر الخندق من جديد، فالأحزاب قادمون. وانطلق رجال من أهل المدينة إلى مناهل المياه في طريق الشام يملأونها قطرانًا فقد يعرقل ذلك اندفاع القوّات الزاحفة.

قال أحدهم وهو يفكّر في لحظة المواجهة:

- وبنو أُميَّة في المدينة. انّهم خطر يهدّدنا في كلّ ساعة، عددهم يربو على الألف ... فماذا نفعل؟

أجاب آخر:

- نجليهم عن ديارنا.

- إذن سوف يدلّون العدوّ على نقاط الضعف في المدينة.

- نأخذ عليهم العهد والميثاق.

- ومتى كان هؤلاء يعرفون للعهد حرمة وللمواثيق إجلالًا؟

- ليس أمامنا إلّا أن نقتلهم أو الجلاء.

- الجلاء أفضل إذًا.

وصلت الجيوش إلى «وادي القرى» وكانت السماء تبكي بصمت.

قال قائد الجيش، وكان مسرفًا، لابن عثمان:

- ماذا وراءك؟ وأشَّر عليّ.

- لا أستطيع، قد أخذ علنيا العهد والميثاق أن لا ندلّ على عورة أو نظاهر الغزاة.

شعر المرّيُّ بالحقد يعصر قلبه:

- لولا أنّك ابن عثمان لضربت عنقك ... اخرج.

و التفت إلى ابن مروان وقال بجفاء:

- هات ما عندك.

أجاب ابن مروان وقد تحفّز في أعماقه «الاسخريوطيّ»

- نعم أنا أدُلّك ...

وأردف وهو يشرح له خطّة الغزوة:

- انطلق بالجيش إلى «ذي نخلة» لتكون في مكان تحشد فيه جنودك، فإذا طلع الفجر اجعل المدينة على يسارك ثمّ در بها حتّى تصل إلى «الحرّة» في جهة الشرق، ثمّ ازحف عليهم مع شروق الشمس.

نظر المرّيُّ إلى ابن مروان متفحِّصًا وعيناه الكليلتان تسألانه عن جدوى ذلك.

قال حفيد الزرقاء مستأنفًا:

- فإذا أشرقت الشمس فستكون في خلف جيشك وفي عيون المدينة، وستؤذيهم فلا تجعلهم يرون سوى بريق السيوف والرماح تبهر عيونهم وتلقي الوهن في قلوبهم.

صفّق قائد الجيش متحمسًا:

- للّه أبوك! أيَّ امرئ ولد!

أشرقت الشمس ذلك اليوم حمراء حمراء كعين حمئة، وقد انقشعت السحب فإذا السماء زرقة صافية كبحر فيروزيّ اللون.

نهضت ثلّة من المهاجرين وثلّة من الأنصار، ولكن أنّي لهؤلاء الوقوف بوجه الطوفان القادم من دمشق.

واشتعلت المعارك، وبدت السيوف وسط الغبار، بروقًا تتقاتل في الأرض، وأضحت «الحرّة» معراجًا للأرواح التي اختارت الحرّيَّة، وكانت أسراب الجراد تفتك في حقل مليء بسنابل خضر. وقبل الغروب انهار السدّ البشريُّ ورُدِم الخندق فإذا مدينة محمّد في مهبِّ إعصار فيه نار.

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٢٦]

أكثر من عشرة آلاف فارس وأكثر من عشرة آلاف من المشاة يتدفَّقون صوب المدينة بعد أن أعلن قائد الغزو:

- إنّها مباحة لكم ثلاثة أيام.

برقت في العيون الجائعة آلاف الرغبات، وتأجَّجت في النفوس الدنيئة حمّى الشهوات؛ يا ليالي السلب والنهب والرغبات المجنونة في أحضان العذارى، قطعان الذئاب تتدفّق صوب يثرب كطوفان مدمّر.

السيوف الشاميّة تحصد آلاف الـرؤوس؛ كلّ شيء مستباح؛ الدماء تلوّن صعيد الأرض الطيِّبة، واستغاثات مقهورة ترتفع من حنايا البيوت والمساجد.

- يا محمَّداه ... يا نبيَّ اللّه ...

الخيول المجنونة تدور في الأزقَّة والسكك بحثًا عن الذهب والفضَّة وعذارى المدينة.

هناك في أعماق النفس البشريّة خِنزير قابع مغلول بالسلاسل؛ ولكنّ الشيطان قد يتسلّل في غفلة الإنسان فيحطّم تلك القيود وعندها يقفز الخِنزير يعربد ويدمّر وينتهي الإنسان ... ربَّما يقتله الخِنزير أو يصرعه أو يوثقه الأكتاف.

وهكذا كان ...

يومَ هوى الحسين فوق الثرى ونام، وثب الخِنزير المصفّد بالسلاسل والأغلال، وثب مجنونًا وراح يرقص رقصة الحرب والغزو، تتأجّج في عينيه الشهوات وتبرق في رؤاه الأسلاب. هاهي الخيول الغازية تعبر جثّة الحسين وتنطلق لاستباحة العالم ... لم تبق هناك من حرمات فالكلّ مستباح.

كانت صبيّة تركض ... مبهورة الأنفاس يُطاردها ذئب ... تعثّرت ... وقعت على الأرض ... نهضت رغم جراحها، هرولت كظبية يطاردها صيّاد دنيء ...

اشتعلت في أعماق الذئب حمّى الشهوات. برقت عيناه

كأفعى ... طاردها عبر بوّابة مسجد النبيّ لم يطرف له جَفْن، الصبيَّة وراء قبر الرجل السماويّ ... لاحقها وهو يلهث ... لجأت إلى المحراب ... ولكنّ الذئب لم يعد يرى شيئًا، جذبها من ضفيرتها افترشها ... انتزع منها أعظم كنز تملكه العذارى ... ولم ينس وهو يقوم عنها أن ينتزع أساور من ذهب وفضة ... لم تعد ذات قيمة في نظر الفتاة، فتركته يفعل ما يشاء.

جثم صمت مخيف فوق المدينة الحزينة، وقد غادر الجنود إلى معسكرهم يحملون الأسلاب.

كان يسير يهزّ الأرض بقدميه الغليظتين، يكاد يحرق بنظراته المشتعلة الأبواب والكوى وجدران البيوت الطينية. سمع، وهو ينعطف باتجاه الشمال، بكاء طفل رضيع. تسمّر ... نهض الخِنزير على قوائمه الأربع ... رفس الباب. وجد أمًّا صغيرة ...

كانت جالسة وسط الحجرة وقد تبعثرت حولها الأشياء، المنظر ينم عن مرور الجنود منذ ساعة.

صرخ الجنديُّ الغليظ:

- هات ما عندك.

قالت الأمُّ الصغيرة:

- ما تركوا لي شيئًا ... سلبوني كلّ شيء.

اشتعل الحقد في أعماقه ... وتأجّجت شهوته وهو يكاد يلتهم ثديها بنظراته ... جذب الرضيع بقسوة و«لطشه» بالجدار ...

كانت الأُمُّ الصغيرة كالعصفور بين يديه .....

لم يجد معها ذهبًا ولا فضَّة فأخذ منها شيئًا آخر وغادر البيت ... وفي هذه المرّة كان الطفل ساكتًا وأُمّه تبكي ... تبكي كلّ الأشياء ... كلّ الأشياء العزيزة التي فقدتها في لحظة من ليل الذئاب.

الرؤوس تتساقط كنجوم منطفئة؛ كان قائد الغزاة يتوعّد ويهدّد ويشتم بعد أن أمر بإلقاء القبض على «عليّ بن الحسين» ذلك الفتى الذي أنجاه اللّه من قبل.

وجاءوا بالفتى الذي يحمل في وجهه سيماء النبوّات. الصلاة تنساب على شفتيه ... كان يتمتم بخشوع:

- اللّهم ربّ السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن ... ربّ العرش العظيم ... ربّ

محمّد وآله الطاهرين ... أعوذ بك من شرّه وأدرأ بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره وتكفيني شرّه.

الذين حضروا اللقاء كانوا يدركون أنّها النهاية، ولسوف ينقطع نسل الحسين إلى الأبد ... ولكن ماذا حدث لكي ينقلب الموقف؟ فإذا الذي كان يتوعّد ويهدّد، والرؤوس تتساقط بين يديه من دون أن يطرف له جفن، ينهض بإجلال للفتى القادم بل يقوده بنفسه ليجلسه على سريره ...

وفغر الذين حضروا اللِّقاء أفواههم دهشة، وقد سمعوا الرجل الذي لا يعرف حرمة للدماء الآدميّة يقول للفتى:

- سلني حاجتك يا أبا محمّد.

قال الفتى بحزن:

- أسألك أن تكفّ السيف عن قتل الناس.

أطرق القائد موافقًا.

قال المرِّيّ متودِّدًا:

- لعلّ أهلك فزعوا.

أجاب ابن الحسين:

- أي واللّه.

هتف قائد الجيش:

- أسرجوا له دابّته ...

وأردف مخاطبًا الفتى:

- لو كان عندنا شيء لوهبناك.

قال الفتى وهو يستوي فوق دابّته.

- ما أعذرني للأمير.

وانطلق الفتى ... بعد أن أوقف مسلسل القتل وطاحونة الموت، فتنفَّس الناس الصعداء.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مسموح بالبيع أو الطباعة

[٢٧]

كمن يجمع الثمار المتساقطة من شجرة تعصف بها الريح من كلّ مكان، كان «ابن الزبير» يراقب ما حوله ويجمع حوله الغاضبين على «يزيد»؛ بينما شجرة الإسلام تهتزُّ من الجذور.

كان «المختار» قد وصل حديثًا بعدما أُطلق سراحه في الكوفة؛ رجل دفعته الأقدار لمساندة «ابن الزبير» لا لشيء سوى الثورة على الظلم والانتقام من قتلة أولاد الأنبياء.

بدا ابن الزبير سعيدًا بتحالفه مع المختار، هتف ابن الزبير بحليفه الجديد:

- هيَّا بنا إلى طريق القوافل ... لقد بعثتُ من يأتيني بالأخبار.

قال المختار وهو يحدّق في الأفق البعيد حيث تلتقي

السماء بالأرض:

- أرى فارسًا قادمًا من بعيد.

- أجل، إنّه هو.

مرّت لحظات يحسبها المنتظرون ساعات طويلة، كان صدى سنابك الحصان يرتفع شيئًا فشيئًا والغبرة تقترب رويدًا حتّى إذا أصبح على خطوات كبح الفارس جماح حصانه وهتف مبهور الأنفاس:

- دخل الجيش المدينة واستباحها ثلاثة أيّام وقتل أكثر من عشرة آلاف من أهلها ... وعرض النسوة للبيع في الأسواق.

عضّ المختار على نواجذه غضبًا:

- اللعنة على المرّيّ ... لم أرَ أكثر منه جرأة على الدماء.

قال الفارس:

- انتقم اللّه منه ... مات بعد مغادرة المدينة وعيّن على الجيش «الحسين بن نمير» وأوصاه بالفتك بأهل مكّة.

تمتم «ابن الزبير»:

- الحصين لا يحتاج إلى من يوصيه، إنّه لا يقلّ قسوة عن أسياده.

التفت المختار إلى صاحبه:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- نعتصم بالحرم فربَّما تردعهم حرمة الكعبة.

- ولكنَّ هؤلاء لا يقيمون للكعبة وزنًا!!

- سوف نرى ... كما أنّه ليس بمقدورنا أن نفعل شيئًا آخر.

وتمرّ الأيّام ثقيلة مريرة، وليالي مكّة تموج بالقلق والهمّ والترقُّب، والسماء تنوء بسحب سوداء كتلال من الدخان.

وصلت الجيوش الغازية، وأخذت مواقعها فوق رؤوس التلال المشرفة وعلى سفوح الجبال.

الجنود ينقلون المنجنيقات لتأخذ مواقعها في القمم استعدادًا لقصف المدينة التي بدت ذلت الصباح القاتم مقفرة تمامًا.

كان «الحصين بن نمير» قائد الغزو يتطلّع إلى مكّة وقد بدت الكعبة في فنائها كشيخ يتعبّد وحيدًا.

نظر إلى المنجنيقات الهائلة وإلى كتل الحجارة المنقوعة بزيت النار ... كلّ شيء ينتظر اللحظة الفاصلة.

لوّح ابن نمير بسوطه في الهواء معلنًا بداية المعركة وهتف بحماس:

- اقصفوهم بالمجانيق.

وانهمرت كتل ناريّة على بيوت المدينة، وكان خطُّ النار يقترب شيئًا فشيئًا من أوَّل بيت وُضِعَ للناس ... بيت بناه إبراهيم وإسماعيل.

كانت خطّة الاحتلال تقضي بدكّ المدينة بالمجانيق ثمّ اقتحامها بسلاح الفرسان تساندهم قوّات المشاة.

كانت حدّة القصف تتصاعد وعينا القائد تشتعلان حقدًا.

حاول ابن الزبير بثّ الخلاف في صفوف الغزاة. فأصدر أمرًا بالاعتصام بالحرم.

كانت كتل النار تهوي في وادٍ غير ذي زرع؛ زعق ابن

نمير وهو يرى فتور القصف:

- اقصفوهم بشدّة.

هتف جنديّ:

- إنّهم يعتصمون بالكعبة؟!

- اقصفوا بالكعبة إذًا ... أيّها الأحمق.

وأردف مبرّرًا:

- نحن ننفّذ أمر الخليفة ... هل تفهم؟

كانت كتل النار تنفجر في باحة الحرم .. تتشظَّى ... وشبّت النار في جدران الكعبة، وكانت السماء تشهد اصطكاك الغيوم، فاشتعلت البروق وضربت الصواعق منجنيقًا فأحرقته مع جنود كانوا حوله.

أراد ابن نمير حسم الموقف بدفع فرسانه وأعقبهم بالمشاة.

دارت معارك ضارية في الحرم، وقد شوهد المختار يقاتل ببسالة وهو يهتف في جنوده:

- دافعوا عن بيت اللّه.

وفي ذرى التلال كان ابن نمير يتلقّى نبأ وَصَلَ إليه توًّا من دمشق:

- لديّ نبأ هامّ أيُّها القائد.

- تكلّم!!

لقد توفِّيَ الخليفة.

بلع القائد ريقه وحشرج بصوت مكتوم:

- ماذا تقول؟! ... اكتم الخبر ما استطعت.

غير أنَّ خبرًا كهذا لا يمكن إخفاؤه ... لكأنَّ روح الشيطان تتراجع منذ اللحظة التي ذهب فيها يزيد إلى مصيره المجهول في رحلة صيد.

[٢٨]

ما أسهل على المرء أن يهدم ويدمّر، وما أيسر أن يجتثَّ شجرة معمّرة من جذورها، ولكن ما أشقّ البناء، إنّه يحتاج إلى فكر وتأمّل وتدبّر، فالبناء تحكمه قوانين وزراعة الأشجار تحتاج إلى صبر.

البناء بصيرة وفكر وتأمل، والعدم قوّة عمياء تتخبّط كيف تشاء. إنّها محنة البناء في زمن التداعيات ... في زمن الانهيارات التي لا يوقفها شيء.

لقد اختفت الروح التي كانت تحرّك التاريخ وتصنع الإنسان، واستيقظت الغرائز لا ... بل انطلقت مجنونة في زمن انطفأت فيه الشمس، فإذا ليل الجزيرة ينوء بظلمات بعضها فوق بعض.

وبين الفينة والأخرى تتألّق حلقات من ضوء تستمدُّ جذوتها من روح مشتعلة في كربلاء.

هناك، وعلى شاطئ الفرات وجرح يفور يتحدّث بلغة عجيبة،

تبثّ الأرض أسرارها، والنفوس المقهورة تحلم بحياة أفضل.

التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك.

فرّ الأرقط إلى الشام تاركًا العراقين خلف ظهره، تطارده روح الحسين.

الثمار تتساقط في قبضة «ابن الزبير» خليفة الحجاز والعراق ومصر وأجزاء من الشام؛ وقد شبّت النار في داخل البيت الأمويّ، وابن الزرقاء يستولي على دمشق عاصمة الشام ويستردُّ مصر، ثمّ يموت مخنوقًا في فراشه، خنقته أُمُّ خالد التي تزوّجها بعد هلاك يزيد!!

كان عبد الملك جالسًا يقرأ القرآن عندما بُشِّر بموت أبيه والخلافة ... مرّت لحظات صمت ثمّ أطبق المصحف وتمتم مخاطبًا كتاب السماء:

- هذا فراقٌ بيني وبينك.

وكشّر الخليفة الجديد عن أنياب حادّة وبدأ حربه من أجل استعادة الملك ... فكان الأرقط قائده الأوّل في حملة لإستعادة الأرض العراقيّة، وتحرّك جيش قوامه ثمانون ألفًا.

وفي الكوفة استيقظ الآلاف من خَدَرٍ قديم وأعلنوا توبتهم من إثم ارتكبوه قبل سنين. وكان «سليمان بن صرد» رجل خزاعة زعيمًا للتوّابين، واشتعلت الثورة في النفوس والتهبت الضمائر وتحرّك أكثر من أربعة آلاف انتحاريّ صوب كربلاء كعبة الأحرار في العالم؛ لتشهد تلك البقعة من دنيا اللّه أعظم مناحة في التاريخ، فالثورة دماء ودموع، سيوف وضمائر ملتهبة، أفكار ونفوس تتأجّج بغضب سماويّ. وهكذا وُلِدَ الحسين من جديد سيفًا ... قرآنًا ... صهيلًا مخزونًا من لحظة عاشوراء.

المعارك تشتعل في كلّ مكان وقد غادرت السيوف أغمادها، ولكن هناك معركة في ميدان عميق ... معركة في داخل النفس البشريّة لم يُحْسَمِ الصراع فيها بعد.

منذ هزيمة الروح في شاطئ الفرات بصِفِّين ... منذ ذلك التاريخ والضمير المثقل بالخَدر يعاني حمّى الانتفاض،

ولقد انبعثت نافورة الدماء بكربلاء لتطهّر النفوس وتبعث الحياة في الرماد، في لحظة تشبه يوم القيامة في لحظات المعاد.

وهكذا أراد الحسين ... رَسَم بدمه ملحمة الموت من أجل الحياة، والفارس الذي حطّم جدار الزمن ما يزال يقاتل.

أصداء صهيل في عاشوراء تدوّي في النفوس ... تنتزع من قلب الشتاء الربيع، ومن رحم الموت الحياة؛ ومن أجل هذا كان عليٌّ لا يفتأ يبكي أباه.

الدموع ينبوع يغسل القلوب ... يطهّر الضمائر من كلّ أدران الحياة ... وعندها ينبعث الحسين.

[٢٩]

غادر «المختار» الحجاز عائدًا إلى الكوفة يحمل في أعماقه غضب الثورة.

وفي الكوفة اجتمع «الأشراف» إلى الأمير «عبد اللّه بن مطيع» حاكم الكوفة من قبل «ابن الزبير».

تمتم عمر بن سعد محذّرًا:

- أيُّها الأمير! إنَّ المختار أشدّ خطرًا من «سليمان بن صرد». إنّ سليمان قد خرج من الكوفة لقتال أهل الشام، أمَّا المختار فإنّه يستعدُّ للوثوب في الكوفة.

وهمس «شبث بن ربعيّ»:

- أرى أن تودعه السجن أيّها الأمير ...

وأردف وهو يحكّ ذقنه:

- من الأفضل أن نتغدّى به قبل أن يتعشَّى بنا.

أجاب الأمير وكان يتهيَّب اعتقال المختار:

- لا تخشوا شيئًا ... فرجالي يراقبون كلّ شيء.

تساءل شبث:

- حتَّى تردُّد «ابن الأشتر» إلى منزل المختار؟!!

صوّب الأمير نظرات متسائلة:

- ماذا تعني؟

- أيّها الأمير ... أرى أشباحًا تتسلَّل في الظلام ... وأرى رجالًا يشترون السلاح في ضوء النهار.

- وهل في هذا ما يُخشى ... ثمَّ إنَّ المختار كان يحارب إلى جانب «ابن الزبير» في مكَّة ...

- كلّ هذا صحيح، ولكنّ المختار يضمر الانتقام ممّن شارك في قتل الحسين.

تثاءب الأمير وتململ في جلسته. لقد مرّ شطر طويل من الليل ...

نهض متثاقلًا وسأل:

- ألا تنصرفون إلى بيوتكم؟!

تبادل الجلوس نظرات قلقة.

قال ابن سعد بلهجة فيها استعطاف:

- إنْ أَذِنَ لنا الأمير أمضينا الليلة في القصر.

واستدرك:

- والليالي المقبلة أيضًا.

همس شبث بقلق:

- النوم لا يزورني في البيت ... وكيف يغمض لي جفن وأنا أسمع خُطًى تجوس في الظلام.

ألقى الأمير نظرة استخفاف وغادر المكان.

خيّم صمت ثقيل.

قال «الأبرص» الذي ظلّ ساكتًا كلّ ذلك الوقت:

- هل سمعتما أخبارًا جديدة؟

كلمات للطباعة والنشر لنشر آثار كمال السيد غير مخصص للبيع أو الطباعة

- جاء رسول من المدينة يحمل كتابًا من «محمّد ابن الحنفيّة» إلى المختار.

- ماذا كان فحواه يا ترى؟!

- مهما كان، فإنَّ المطلوب هو رؤوسنا.

نظر ابن سعد حواليه بحذر وقال بصوت خافت:

- لا تنسوا أنّ «ابن زياد» قادم على رأس ثمانين ألفًا من جنود الشام.

- وهل تعتقد أنّه سيغفر لنا بيعتنا «لابن الزبير»؟

- إنّه يعرف ـ رأينا جيّدًا ولن يجد أفضل منّا أعوانًا له.

نهض الثلاثة وأخذوا طريقهم إلى سلالم تؤدِّي إلى سطح القصر...

كانت السماء مرصعة بالنجوم ونسمات باردة تهبّ برفق ... وصمت ثقيل يغمر الكوفة ما خلا سنابك خيل الدوريّات وهي تجوب أزقّة المدينة الغارقة في الظلام.

[٣٠]

مثلما تشبّ النار في أكوام التبن، اشتعل حريق الثورة في الكوفة مدينة من رماد في طواياها جذوة نار أوقدها رجل هوى على شاطئ الفرات ككوكب درّيّ.

دوّت شعارات الثورة في ليلة خريفيّة عاصفة... واستيقظ النائمون على صيحات الثائرين: يا لثارات الحسين.

وفرّت الرؤوس المطلوبة، وتساقط بعضها كما تتساقط الثمار الفاسدة.

سقط رأس ابن سعد، فيما فرّ شبث إلى البصرة إلى أحضان ابن الزبير، وفرّ الأبرص لا يلوي على شيء.

وانطلقت خيول عربيّة تبحث عن الذين كفروا، إنّهم لا ايمان لهم.

أحاطت الخيول بخيمة في «الكلتانية» وخرج الأبرص مرعوبًا بيده رمح.

حانت لحظة القصاص؛ وسقطت ثمرة فاسدة، وعادت الخيول تزفّ البشرى إلى القلوب المقهورة.

طارت الأنباء إلى المدن القريبة والبعيدة كفراشات ملوّنة تبشّر بالربيع.

كان «قصر الإمارة» الذي شهد آلاف الجرائم قد حوّلته الثورة إلى محكمة كبرى للاقتصاص من المجرمين.

دخل المنهال الذي عاد توًّا من رحلة الحجّ، قصر الإمارة يُبلِّغه تحيَّات أهل بيت مقهور.

كان الجنود يجرّون رجلًا تكاد حدقتاه تفرّان رعبًا.

نظر المختار إليه بغضب:

- أنت حرملة بن كاهل؟

- أجل.

قال بلهفة ساخرة:

- إذًا حدّثنا عن شجاعتك يوم «الطفّ».

أطرق الرجل الفأر رأسه:

كان الحسين يحمل طفله الرضيع ويطلب من الجيش قطرة ماء ... فلقد جفّ لبن أُمِّه من العطش والظمأ والحصار.

- وهل سقيتموه.
- كلّا.
- ألم يكن معكم ماء؟
- كان الفرات يموج بالمياه.
- ماذا فعلت يا رجس؟
- من بعيد بدت رقبة صغيرة تتألّق في الضوء، كانت ناصعة كالقطن. وضعت سهمًا في كبد القوس. كان السهمُ حادًّا نفّاذًا ذبح الطفل من الوريد إلى الوريد ... وهكذا أراد ابن سعد.
- ماذا صنع الحسين في تلك اللحظة؟
- نظر إلى الطفل ثمَّ ملأ كفّه من الدماء المتدفِّقة ورمى بها نحو السماء ... وهتف بصوت سمعه الكثيرون ...

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

- ماذا قال يا وغد؟

- كان ينظر إلى السماء وكأنّه يخاطب ملكًا عظيمًا. هتف عاليًا: اللّهمَّ لا يكون أهون عليك من فصيل ناقة صالح.

دمعت كلّ العيون.

كان «المنهال» يبكي بصمت وقد اشتعل غضب مقدّس في الأعماق ... حتّى نسي كلّ ما يدور حوله ... انتبه إلى نفسه على صوت غاضب:

- الحديد والنار ... اقطعوا يديه ورجليه والقوه في النار. كذلك جزاء المجرمين.

فغر المنهال فمه دهشة وهو ينظر إلى ما يجري حوله فهتف:

- سبحان اللّه ... سبحان اللّه.

التفت المختار:

- التسبيح حسن ولكن لِمَ سبّحت؟

لمّا ذهبت إلى المدينة بعد الحجّ، مررت بمنزل عليّ

بن الحسين ... كانت الدموع تملأ عينيه، فسألني: ما فعل حرملة بن كاهل؟ قلت له يا سيِّدي، تركته بالكوفة حيًّا.

فرفع يديه إلى السماء وتضرّع بصوت شجيٍّ قائلًا:

اللّهمَّ أذقه حرّ الحديد، اللّهمَّ أذقه حرّ النار ... وها أنا أمامي كيف تُجاب دعوة عبد صالح ...

هتف المختار مأخوذًا:

- اللّه ... اللّه أسمعت عليَّ بن الحسين يقول هذا؟!
- اللّه ... اللّه لقد سمعته يقول هذا ... واللّه، إنَّ كلماته ما تزال تتردّد في أُذني.

وهوى المختار ساجدًا للّه ...

قال المنهال متودّدًا:

- ألا تتغدّى عندي اليوم أيّها الأمير؟

تمتم وقد غمرت وجهه مسحة شفافة من النور:

- هذا يوم صوم شكر للّه.

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣١]

كما تشير البوصلة إلى قطب الشمال، كان هناك شيء ما يتَّجه من بعيد يشير إلى بقعة على شطآن الفرات ... إلى منائر تنبعث من أعماق المياه ... شيء يشبه الروحَ تفصح عنه الحوادث كما تفصح الأرض عن سرّ البذار.

مضى التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك. الخيول تهزّ الأرض وتثير الغبار ... تغير على المدن، في العراقين وفي الحجاز.

فقد الإنسان العربيُّ طمأنينته .... ورحل زمن السلام، وهاجرت الروح بعيدًا.

وعندما تغيب الروح، تنطفئ الجذوة المشتعلة التي تُضيءُ للإنسان طريقه في الحياة.

بدت الكعبة ذلك العام كسفينة وسط أمواج بشريَّة متدافعة.

تمتم «زين العابدين» بحزن:

- ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج ...

وقف سعيد بن المسيَّب وسط حشود القرَّاء ينتظرون رجلًا يدعوه الناس بألقاب؛ فاذا قيل «ذو الثفنات» أو «سيِّد العابدين» أو «زين العابدين» أو «السجَّاد» أو «الزكيّ» أو «الأمين» فإنَّ الأذهان تنصرف إلى شابّ في الثلاثين من عمره ... عليه سيماء النبوّات وقد رسم الحزن لوحة في عينيه تموج فيها غيوم مخزونة بالمطر.

غير مخصص للبيع أو الطباعة

ها هو قادم.

هتف أحد القرّاء، وقد أشار إلى جهة تفضي منها قوافل الحجيج.

ورنت الأبصار إلى نبع الطمأنينة في دنيا كلّ ما فيها يدور بعنف.

تهفو له القلوب الحائرة وهي تبحث عن طريق السماء، بعدما تشابهت عليهم السبل.

انطلق الركب باتجاه الشمال إلى حيث هاجر محمّد من قبل؛ سفن الصحراء تطوي المسافات الزاخرة بالرمال.

مالت الشمس نحو المغيب، وألقت السفن مراسيها ليلتقط المسافرون أنفاسهم.

ثمّة شجيرات تحيط بغدير ماء؛ ومضارب لخيام بعيدة، ونسوة يحملن جرار الماء ويتَّجهنَ صوب الخيام.

غابت الشمس وراء كثبان الرمال؛ وبدت ذرى التلال متّقدة بضوء يفور حمرة.

شمّر «زين العابدين» عن مرفقيه وراحت مياه الوضوء تنثال على وجه مُضيء فتتساقط حبّاتها محدثة نغمًا هادئًا.

اتجه حفيد النبي بكلِّيَّته إلى البيت المعمور وكبّر للصلاة. بدا كتمثال منحوت بخشوع ما خلا نسمات كانت تحرّك ثيابه البيضاء برفق.

خيّم صمت مهيب لكأنَّ روح الإنسان وهي تتصل بسبب إلى السماء تهيمن على كلّ ما حولها ومن حولها من شجر وحجر وآدميّين.

هوى الكائن الأبيض ساجدًا للحقيقة الوحيدة؛ كحمامة تبشّر بالسلام.

انبعثت كلمات أخّـاذة لكأنّها نهر يتدفّق من جنّات الفردوس، تنساب هادئة معبّرة تمسح على القلوب فتهبها السكينة وعلى الرمال فتغمرها خشوعًا وجلالًا.

النبع المتدفِّق يسحر الكائنات بتسبيح الإنسان:

سبحانك اللّهمَّ وحنانيّك.

سبحانك اللّهمَّ وتعالَيْت

سبحانك اللّهمَّ والعزّ ازارُك

سبحانك اللّهمَّ والعظمة رداؤك

سبحانك اللّهمَّ والكبرياء سلطانك

سبحانك من عظيم ما أعظمك

سبحانك سبحت في الأعلى ... تسمع وترى ما تحت الثرى.

سبحانك أنت شاهد كلّ نجوى

سبحانك موضع كلّ شكوى

سبحانك حاضر كلّ ملأ

سبحانك عظيم الرجاء

سبحانك ترى ما في قعر الماء

سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار

سبحانك تعلم وزن السموات

سبحانك تعلم وزن الأرضين

سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر

سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور

سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء

سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرّة

سبحانك قُدُّوس قُدُّوس قُدُّوس

سبحانك عجبًا من عرفك كيف لا يخافك؟!

سبحانك اللّهمَّ وبحمدك

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

سبحان اللّه العليّ العظيم

أمر عجيب! ماذا حدث؟ ما هذا الدويّ الذي تردِّده الكائنات لكأنّ صوت الإنسان قد فجّر في مكنوناتها الأسرار كما تنفجر من الصخر ينابيع الحياة في لحظة تماسَّ مع الغيب.

الأشواك وذرّات الرمال والشجيرات المتناثرة هنا وهناك تردّد بصوت يشبه دويّ النحل في نخاريبها: سبحان اللّه ... سبحان اللّه.

مرّت لحظات مشحونة سمع فيها أبناء آدم، وقد عادوا من الحجّ الأكبر، تسبيح الكائنات.

فُغِرَت الأفواه دهشة وانعقدت الألسن في اللحظة التي يلج فيها ابن آدم عالم الملكوت.

رفع الذي عنده علم الكتاب رأسه من الأرض والتفت إلى ابن المسيَّب:

- أفزِعْتَ يا سعيد؟

أجاب سعيد وقد ثاب إلى رشده:

- نعم يابن رسول اللّه ...

- هذا التسبيح الأعظم ...

سكت هنيهة ثمّ أردف:

- حدّثني أبي عن جدّي عن رسول اللّه لا تبقى الذنوب مع هذا التسبيح، وإنّ اللّه جلّ جلاله لمّا خلق جبريل ألهمه هذا التسبيح، وهو اسم اللّه الأكبر.

عادت الأشياء إلى طبيعتها، وآب الإنسان إلى عالمه حيث الأشجار صامتة وذرّات الرمال غافية منذ آلاف السنين؛ وبقي الانسان يتذكّر لحظة قدسيّة ولج فيها الملكوت ثمّ عاد إلى طبيعته مرّة أخرى.

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣٢]

الأرض العربيّة تهتزّ تحت حوافر آلاف الخيول وهي تغير على المدن فتشتعل المعارك، ويتصاعد دخان الحرائق ليحرق العيون ... كلّ العيون.

شبّت النار في «عين الوردة» وقد قُتِلَ صحابة كانوا حول الرسول وامتد الحريق إلى «الموصل» هناك على شطآن «الخابور» قبل أن يرفد «دجلة» ملحمة يسقط فيها رأس «الأرقط»، وتشبُّ النار في بطائح الفرات في ثورة للزنوج ثمّ تندلع في الحيرة لتحرق الكوفة ويقاتل المختار وحيدًا في أزقّتها وتتقدَّم زوجته بشجاعة إلى لحظة الإعدام لتكون أوّل امرأة تُقتَل صبرًا في تاريخ الإسلام.

الكوفة تستسلم لعبد الملك، والحجاج بن يوسف يشدّد الحصار على مكّة ويقصف الكعبة بالمنجنيقات.

الكعبة تحترق مرّة أخرى وقد سجّر الشيطان نيرانه والجيوش الغازية تقتحم مكّة فيرتفع ابن الزبير على أعواد الصليب.

حتّى إذا دخل الخريف، وقد مرّت سبعة قرون على ميلاد المسيح، كان عبد الملك قد بسط سطوته على الأرض الإسلاميّة من خراسان إلى «قرطاجة».

خيّم سلام المقابر فوق الأرض، بعد أن أُخمدت الأنفاس في «دير الجماجم» ليبدأ عهد جديد ... عهد الإرهاب، وقد تسلّط وحش كاسر يدعى «الحجّاج» على مشارق الوطن المقهور.

واستيقظت في الذاكرة أحاديث قديمة ... كلمات نقلها الرواة حول رجل يأتي في آخر الزمان يحيل سنوات الرماد إلى أعوام خصب، وقد وُلِد الربيع واستيقظت مواسم البذار؛ والبيادر تموج بحَبِّ الحصيد.

نظر ابن جبير إلى سيماء النبوّات تطوف فوق جبين حفيد النبيّ، تفجّر نبع حبّ في القلب حتّى فاضت كلمات:

- إنِّي لأحبّك في اللّه حبًّا عظيمًا.

أطرق ابن النبيّ ثمّ رفع رأسه إلى السماء وهتف بخشوع:

- اللّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أُحَبّ فيك وأنت لي مبغض ...

والتفت إلى سعيد وقال:

- وإنّي لأحبّك للذي تحبُّني فيه.

خيّم صمت حزين وقد اشتعلت مشاهد قانية في ذاكرة الرجل الكوفيّ:

- حدّثني يا سيِّدي عن المهديّ.

أدرك ما يجول في خاطر رجل مقهور ضاقت عليه الأرض بما رحبت وهو يروم العودة إلى الكوفة إلى حمَّامات الدم المراق بلا ذنب.

قال سليل النبوّات:

- في المهديّ يا سعيد، سنّة من سبعة أنبياء من أبينا آدم ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأيُّوب وسنّة من محمّد ... فمن آدم ونوح طول العمر، ومن إبراهيم خفاء الميلاد واعتزال الناس، ومن موسى الخوف

والغيبة، ومن عيسى اختلاف الناس فيه، ومن أيُّوب الفرج بعد البلاء، ومن محمّد الخروج بالسيف ...

أطرق ابن جبير يتأمّل في ملامح القادم الأخضر ... الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا فلقد ضجّت ظلمًا وجورًا.

غادر سعيد أرض الحجاز متوغِّلًا في الصحراء العراقيّة.

ودّع عوالم السلام في مكّة والمدينة ودخل الأرض الحزينة التي ما تزال تبحث عن أبنائها ولمّا تفقد الأمل بعد.

لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣٣]

جلس الحجّاج في قصره المنيف إلى يمينه «تياذوق» وإلى شماله «تاودون» تبرق عيونهما حقدًا على الأشياء التي تنبض بالحياة ... على القلوب التي تخفق بالحبّ حتّى إنّ المرء ليعجب كيف أصبحا طيبين.

رائحة الدم تزكم الأُنوف ... صمت مهيب يغمر المكان، وقد بدا القصر مسحورًا ... العيون جامدة كأحداق زجاجيّة، والقلوب مقدودة من صخور صمّاء قاسية.

كان «الحجَّاج» ينتظر غريمًا طالما جدّ في البحث عنه وها هم يرسلونه مخفورًا من مكّة.

ارتفعت جلبة في باب القصر. عرف الحجّاج أنّهم قد جاءوا به. لبس جلد الأفعى وصوّب نظرات حارقة إلى الباب.

ودخل رجل لا يخشى أحدًا إلّا اللّه ...

كان هادئ القسمات مطمئنًّا ... لا تعلو وجهه تلك الصفرة التي تغشى مَنْ في قبضة الجلّادين.

تمتم الحجّاج ساخرًا وهو يصعّد النظر في غريمه:

- أنت شقيُّ بن كسير؟

- أجاب بغير اكتراث:

- أُمِّي أعرف باسمي.

- لقد سمعت أنّك لم تضحك قطُّ.

- لم أرَ شيئًا يضحكني ... وكيف يضحك مخلوق من طين؟!

- ولكنّي أضحك.

- كذلك خلقنا اللّه أطوارًا.

- هل رأيت شيئًا من اللهو.

- ....

صفّق الحجّاج بيديه ... فوقف المطربون صفًّا،

وارتفعت أصوات الأبواق، وصدح الناي، وعلا الضرب على الأعواد.

وبكى سعيد ... انهمرت دموعه كغمامة حزينة.

تمتم «الجلّاد» حانقًا:

- ما لك تبكي؟
- لقد تذكرت أمرًا عظيمًا. لقد ذكّرني البوق بيوم النفخ في الصور ... وهذا العود نبت بحقٍّ وقُطِعَ للباطل والفساد.
- أنا قاتلك لا محالة.
- الموت مصيرنا جميعًا.
- أنا أحبُّ إلى اللّه منك.
- اللّه وحده علّام الغيوب.
- أنا مع خليفة المسلمين وأمير المؤمنين
- ....

أشار الذي بقبضتيه السوط والسيف فجاء جلاوزة

يحملون الذهب والفضّة ... ورمى الجلاوزة سحرهم الذي يخطف الأبصار ...

التفت الحجّاج إلى الرجل المكبّل بالأغلال:

- ما رأيك في هذا ؟

- هذا حسن إن قمت بشرطه.

- ما هو شرطه؟

- أن تشتري به الأمن يوم الفزع الأكبر.

- الويل لك.

- الويل لمن زُحْزِحَ عن الجنّة فهوى في قعر الجحيم.

صرخ الحجّاج بعصبيّة:

- اضربوا عنقه.

قال المحكوم بالموت:

- حتّى أُصلّي ركعتين.

اقترب «تاودون» من الأسير.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

وضع أُذنه على بقعة صغيرة في أعلى اليسار من القفص الصدريّ.

أرهف السمع ... كان يتوقّع أنّ القلب المحكوم بالموت سيتحوّل إلى طبل يدقّ بعنف ... يطلق صيحات الاستغاثة والرعب. القلب المؤمن يخفق بهدوء.

- أمرٌ عجيب.

تمتم الطبيب وراح يتفرّس في وجه الرجل العجيب ... كلّ شيء يبدو هادئًا، لكأنّ هذا الرجل ليس محكومًا بالفناء ... إنّه ينظر إلى الموت باستخفاف ... لربَّما يحسبه قنطرة يعبر خلالها إلى عالم مفعم بالسلام.

وتوجّه الرجل الذي أوشك على الرحيل إلى عالم لا نهائيّ. الصلاة تنساب من بين شفتيه كنهر هادئ:

- وجَّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض.

صرخ الحجّاج:

احرفوه إلى قبلة النصارى:

النهر الهادئ يتدفّق سلامًا:

- أينما تولّوا فثَمّ وجه اللّه ...

وانطلقت دعوى المظلوم تشقّ طريقها نحو السماء:

- اللّهمَّ لا تترك له ظلمي واطلبه بدمي واجعلني آخر قتيل يقتله من أُمّة محمّد ...

وارتفع سيف الجلّاد ليهوي ويهوي معه رأس ما انحنى لغير اللّه ... وسمع الحاضرون صوتًا مهيبًا:

- اللّه أكبر ... اللّه أكبر.

كان الحجّاج ينظر متلذِّذًا إلى الدماء وهي تتدفّق من الأوداج ... الدماء تتدفّق ... تتدفَّق.

فغر الحجّاج فاه! إنّه لم يرَ كهذا الدم الذي يشخب كالميزاب. التفت إلى «تياذوق» متسائلًا يطلب تفسيرًا لهذا الدم الذي يتدفَّق بلا انقطاع.

قال طبيب الجلّادين:

- إنّ كلّ الذين قتلتهم كانوا خائفين ... تجمّد الدم في عروقهم قبل أن يموتوا ... ماتوا قبل أن يُقتلوا ... أمّا هذا؟!

- تكلّم!

- لم يمت حتّى بعد القتل ...

صرخ الحجّاج كمن أصابه مسّ من الجنون:

- مالي ولسعيد بن جبير!

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣٤]

وقف «عبد الملك» في شرفة «قصر الخضراء» ينظر إلى المساحات الخضراء الممتدّة ... وينابيع المياه المتدفِّقة؛ وهي تندفع خلال الأشجار.

شعر بضيق في صدره، كان يقلّب رسالة من الحجّاج حاكم المشرق الذي ثبّت له أركان الحكم بقوّة الحديد والنار، فيها كلمات تكاد تكون إنذارًا:

إذا أردت أن يسلم لك ملكك فاقتل عليّ بن الحسين ...

- أمرٌ عجيب ...

تمتم عبد الملك وهو يغادر الشرفة وأردف:

- إنّه يبدو بعيدًا عن شؤون الدنيا منصرفًا عن الحياة منزويًا في بيته يدعو ... و... يبكي ليس غير... وهو

ها الحجّاج يقول بأنّ الخطر يكمن في هذا الرجل!!

- لا ... لا ...

هتف الخليفة ... بصوت مبحوح وأردف:

- لن ألغ في هذا الدم. لقد رأيت بأُمّ عيني ماذا فعلت دماء الحسين من قبل ... كيف أحرقت آل أبي سفيان ولم تبق لهم باقية. ولكن سأحصي عليه حركاته وسكناته. سأخنقه بالجواسيس، أمّا القتل فلا ...

دخل الحاجب يحمل بيده رسالة من وراء الحدود.

فضّ الخليفة الختم باهتمام فهي من القيصر جوستنيان امبراطور الروم.

وحضر المترجم قبل استدعائه.

كاد الخليفة أن ينهار على الأرض وهو يصغي إلى كلمات فيها تهديد ووعيد ... وغطرسة:

- أكلت لحم البعير الذي هرب عليه أبوك من المدينة ... لأغزونّك بجنود مئة ألف ومئة ألف ومئة ألف.

هتف الخليفة مذعورًا وهو يتصوّر تدفُّق آلاف الجنود

عبر الحدود لتأتي على كلّ ما حقّقه من انتصارات ويصبح ملكه في خبر كان ...

ليس الحرب هي مصدر الخطر ... هناك سلاح آخر أكثر فتكًا. لسوف يقطع عن دولة الإسلام النقد. وهذا يعني خراب البلاد.

تمتم وهو يتهالك على سرير كبير محلّى بالذهب:

- أحسبني أشأم مولود وُلِد في الإسلام.

نشر المساء ظلاله وبدا قصر الخضراء في غمرة الظلمة الخفيفة بومة جاثمة تترقّب شيئًا ما.

كان ضوء القناديل يتدفَّقُ من نوافذ القصر فبدت مساقط الضوء كدنانير ذهبيّة ... أو هكذا كان خطر في بال «الخليفة» وهو يتأمّل دينارًا روميًا فيه كلمات عن الأب والإبن والروح القدس ...

حضر عِلْيَةُ القوم وأخذوا أماكنهم وهم ينظرون من طرف خفيّ إلى حاكم البلاد من شرق خراسان إلى أطراف «قرطاجة».

طوّح الخليفة المهموم بالدينار في الفضاء فسقط على

البلاط المرمريِّ محْدِثًا رنينًا ساحرًا.

هتف بغيظ:

- سوف يقطعون عنّا النقد ... فغرت بعض الأفواه ... واتسعت بعض العيون دهشة وهم يصغون إلى أنباء قادمة من وراء الحدود ... القيصر يطلب المزيد ... لم تعد تقنعه مئات الخيول العربيّة التي تدفعها الخلافة الإسلاميّة منذ عهد معاوية وإلى اليوم ... لم يعد يرضيه مئات العيسويِّين الذين يرغبون بالنزوح إلى القسطنطينية ... ولا آلاف الدنانير في كلّ جمعة. ها هو يريد التنازل عن مزيد من الأراضي التي حرّرتها خيول الفتح.

هتف الخليفة بصوت يشبه الاستغاثة:

- ماذا أفعل؟

كان الصمت هو الردّ الذي تلقّاه.

تمتم «روح بن زنباع» من أقصى المجلس ... ترددت كلماته رغم خفوتها وترددها:

- إنَّك لتعلم الرأي والخلاص من هذا المأزق.

هتف عبد الملك كمن يتشبّث بعمود من سفينة محطمة وسط المياه:

- ويحك من تعني؟

قال الشيخ الذي عركته السنون:

- الباقي من أهل بيت النبيّ.

صوت اختلج في أعماق عبد الملك لم يسمعه أحد:

- يا لي من أحمق؛ لماذا لم يخطر على بالي ذلك؟!

غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣٥]

خفّ عبد الملك لاستقبال شابّ لم يبلغ العشرين بعد، يحمل معه خطَّة الخلاص ...

كان الاستقبال حافلًا ... وقف علية القوم يتطلّعون إلى وارث الأنبياء.

كان الخليفة على أحرّ من الجمر لسماع ما يحمله محمّد عن أبيه. نظر إلى ضيفه بإجلال وفي عينيه سؤال كبير.

ابتسم محمّد وقال:

- الرأي أن تبعث له برسالة تستمهله فيها مدّة من الزمن ...

- ثمّ؟!

- ثم اجمع ما استطعت من الذهب والفضة.

- وبعد؟

-وابدأ بصكّ الدرهم والدينار ... وليكن فيها شعار الإسلام ... قل هو اللّه أحد ومحمّد رسول اللّه ...

- وبعد!

- فاذا فرغت من ذلك امنع تـداول النقد الروميّ واعرض النقد الإسلاميّ بدلًا منه ... وسنّ لذلك العقوبات لمن يخالف ذلك.

كان «روح» يصغي بإعجاب لما يسمع فتمتم في سِرَّه:

- اللّه أعلم حيث يجعل رسالته.

انطلقت في الصباح الباكر خيول بُلْقٌ، تنهب المسافات إلى المدن والحواضر، تحمل رسائل متشابهة بالغة السرِّيّة.

شهدت أسواق الذهب والفضة حركة غير عادية ... وكانت الحُلِيُّ الذهبيَّة تختفي شيئًا فشيئًا ... والنسوة يبعن أقراطهن وقلائدهنّ مقابل مبالغ مغرية.

ونشأت معامل لصكِّ الدنانير الذهبيّة ... وبدأ العمل

بإنتاج النقد الجديد وظهر لأوّل مرّة في التاريخ ... الدينار الإسلاميّ يتألّق يحمل نداء التوحيد وشعار الرسالة المحمّدية.

ودّع محمّد مدينة دمشق بعد أن اطمأنّ إلى زوال الخطر ... كان يحمل معه نماذج من النقد الجديد، وفيها نقوش تشير إلى مرور أربعٍ وسبعين سنة على بدء التاريخ الهجريّ وقيام الدولة الإسلاميّة.

وقف عبد الملك يشيّع ضيفه بنظرات متأمّلة فيها حذر وقلق بدأت تساوره من ابناء عليّ ... فهؤلاء يمثّلون القمّة في كلّ شيء ... حتّى الشباب منهم. إنّه لن ينسى جلوسه مع «محمّد» جلسة التلميذ في حضرة أستاذه ... لم تشفع له أُبَّهة الملك أمام هيبة ابن عليّ ...

سيبقى عليّ وأبناؤه هاجس الملوك على مرّ الأيّام.

غاب الضيف عن الأنظار، وانكفأ الخليفة نحو أروقة قصره المنيف وهو يفكّر في رسالة الحجّاج التي بعثها إليه قبل أشهُر.

كما يطرد المرء ذبابة حطّت على أنفه، طرد عبد الملك فكرة قتل «ابن الحسين» وتمتم في سِرِّه:

- لا ... لا ... كفاني ما سفكت من الدماء ...

نظر إلى أكياس طافحة بالدنانير الإسلاميّة فشعر بالثقة تملأ نفسه ...

استدعى كاتبه ليسطر له ردًّا قويًّا يليق بدولة الإسلام إلى جوستنيان الثاني ... ردًّا يحطّم غروره إلى الأبد؛ وأرفق مع رسالته نقودًا إسلاميّة.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣٦]

مرّت أعوام وأعوام، والتاريخ ما انفكَّ يشعل الحوادث.

خيول الإسلام تدقّ أبواب «مرعش» من أرض الروم، وتوغل في السند في بلاد ما وراء النهر، والمعارك مع الكاهنة ما زالت ضارية.

وقد ثار الأزارقة» في «كازرون» ثمّ في «الجزيرة» وثار «ابن الجارود» على الحجّاج، وثار الزَّنج في البصرة بزعامة «شيرزاد».

الروم يغيرون على «قرطاجة» من أرض المغرب.

والبادية العربيّة تردِّد قصَّة عشق بدويَّة: «توبة» يهيم بحبّ «ليلى الأخيليّة» وقد رفض أبوها تزويجها، وهدّد الخليفة العاشق إذا شبَّب بها.

قال لها عبد الملك:

- ما رأى منك توبة حتّى عشقتك؟

فأجابت على الفور:

- ما رأى الناس منك حين جعلوك خليفة؟!

وأراد أن يعرّض بها فسأل:

هل كان بينك وبينه ريبة؟

لا واللّه ... ولكنّه قال لي كلمة ظننت أنّه خضع فيها لبعض الأمر، فقلت له:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها

فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه

وأنت لأخرى صاحب وخليل

ولمّا ماتت ليلى في «ساوة» حلّقت في سماء البوادي قصّة عاشقين ... وتناقل الناس حكاية حبّ جديدة بين بثينة وجميل، من بني عذرة، وقد مات الحبيب في مصر بعيدًا عن حبيبته.

خيول الإسلام تندفع باتجاه أرمينيا، وفي جبهة ما وراء النهر يستمرُّ الفتح حتّى «خوارزم» فـ «شومان» وإلى مدينة «ترمذ».

والطاعون يجتاح مصر، ثمّ الشام والعراق، ويموت عبد الملك، فيتربّع على العرش ابنه «الوليد» وتتصاعد وتيرة «الفتح» لتتخذ لها صبغة الاحتلال والتوسُّع، ويتدفَّق سيل الغنائم وسبي عذارى البلدان المفتوحة.

وتفتح «طنجة» في أقصى المغرب أبوابها للجيوش الإسلاميّة حتّى سواحل البحر.

ويفرّ «جوستنيان» من منفاه «سينوب» ويعود إلى عرشه بمعونة البلغار.

والوليد يطرد حاكم المدينة المنوَّرة من منصبه، ويأمر بإيقافه للناس للاقتصاص منه ...

أشرقت شمس ذلك اليوم لتعلن بدء يوم جديد ... خرج الناس زرافات زرافات ينظرون إلى الزمن كيف يقهر ...

ها هو «هشام المخزوميّ» الذي ما ترك أحدًا إلّا اضطهده وصبّ حقده على بقيّة آل محمد.

ومرّ رجل تقدّم من الحرّاس المحيطين بالحاكم السابق فقال وأشار إلى هشام:

- إنّ هذا ضربني سوطين ظلمًا.

- وهل يشهد لك أحد؟

- نعم ... هذان.

- إذًا تقدّم واقتصّ منه.

وهوى الرجل فلوّح بسوطه مرّتين.

تأوّه «هشام» وتمتم:

- ما أخاف إلّا من عليّ بن الحسين فطالما أسأت إليه.

تقدّم رجل آخر فقال:

- إنّ هذا بصق في وجهي دون حقّ.

- والشهود.

- هذا وهذا.

- ابصق في وجهه إذا شئت.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

وقف الرجل وجمع ما استطاع من لعابه ليقذف به وجه «هشام».

رفع كفًا ترتجف ومسج وجهه وتمتم بحزن:

- كلّ هذا يهون ... ترى ماذا سيفعل بي عليّ بن الحسين إذا حضر؟! ...

لاح من بعيد الرجل «السجّاد» «ذو النفثات» كان يمشي الهوينى في طريقه إلى المسجد حيث أُوقف المغضوب عليه للاقتصاص.

تصاعدت دقّات قلب «هشام» ... أضحت كطبل أفريقيّ يرسل صيحات استغاثة.

قال عليٌّ لابنه عبد اللّه:

- إنَّ هذا الرجل قد عُزِل وأوقفه «الوليد» للناس فلا يتعرّض له أحد بسوء.

تعجب الابن:

- ولِمَ يا أبت ... لطالما أساء إلينا ... وهذا ما نبغيه اليوم.

التفت الأب إلى ابنه وهو يعظه:

- يا بنيّ نكله إلى اللّه.

ولمّا أصبح السجّاد بمحاذاته واستعدَّ «هشام» للحظة الانتقام إذا به يسمع شيئًا لم يخطر على باله.

قال السجّاد:

- إذا احتجت إلى مال يطلبه أحد منك فلدينا ما يسعك فلا تقلق ... وطِبْ نفسًا منّا ومن كلّ من يطيعنا.

أحدثت الكلمات دويًّا في نفسه حتّى إنّ المرء ليمكنه أن يرى أصداء الانهيارات وهي تنعكس في عينيه وفي قسمات وجهه.

هتف «هشام»:

اللّه أعلم حيث يجعل رسالته.

وأخذ «ذو الثفنات» سمته نحو المسجد ... وقد التفّت حوله جموع المؤمنين. وتدفَّق شلّال الصلاة في مسجد النبيّ يصلّي فيه حفيده.

[٣٧]

- ألا تذهب إلى المسجد يا أبي؟!

قالت الصبيَّة لأبيها الشيخ ...

تمتم ومياه الوضوء تتقاطر من وجهه:

- واللّه يا بنيَّتي إنّي لأخجل من نفسي ...

- ولِمَ؟

- لقد رأيت في ظهيرة اليوم ما لم أره ولن أراه.

- وما رأيت يا أبه؟

- رأيت الحسن بن الحسن.

- السجين الذي انهالوا عليه بالسياط في مسجد النبيّ

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

قبل شهرين.

- أجل ... رأيته اليوم يقف على رأس ابن عمّه عليّ بن الحسين ... فشتمه وأسمعه سيِّئ الكلام ... واللّه لوددت أن أصفعه.

- وماذا حصل؟

- لا شيء، أطرق «السجّاد» ولم ينبس ببنتِ شفةٍ إجلالًا لمسجد جدّه.

سكت الشيخ هنيهة واستأنف حديثه:

- فلمّا غادر الحسن المسجد، رفع عليّ رأسه ونظر إلينا. كنّا جميعًا ساكتين ... وعرف ما في قلوبنا من رغبة في أن يردَّ له الصاع صاعين ...

وفرحنا عندما قال لنا: قد سمعتم ما قال الرجل وأنا أحبّ أن تنهضوا معي حتّى تسمعوا ردّي عليه.

فنهضنا معه وانطلقنا نحثّ الخطى إلى منزل الحسن، وهتف «السجّاد» بابن عمّه فخرجت جارية تسأل عن الطارق فقال: قولي له عليّ بن الحسين، فخرج إلينا متوثِّبًا عيناه تقدحان شرًّا مستطيرًا.

- وماذا حصل يا أبي؟

- أمرٌ عجيب يا بنيّتي. لقد ورثوا مكارم الخُلق عن جدّهم ... لم يزد على أن قال له: يا أخي إنّك قد وقفت عليّ آنفًا وقلت وقلت ... فإن كان الذي قلته حقًّا فأنا استغفر اللّه منه، وإن كان باطلًا ما قلت فغفر اللّه لك ...

- يا لهذا الحِلم! فماذا قال الحسن؟

- يا بنيَّتي واللّه رأيته يرتجف وقد سقطت العصا من يده وتصبّب جبينه عرقًا ... لكأنّ الأرض تهتزُّ تحت قدميه ... ورأيته يبكي مثلما يبكي الأطفال ... ثم ألقى بنفسه على ابن عمِّه وقال: أجل واللّه، قلت فيك ما ليس فيك، وأنا أحقّ به.

قال السجّاد وهو يقبّله:

- أعرف أنَّما دفعك إلى ذلك الحاجة.

وأخرج من جيبه صرّة فيها ألف دينار وناولها إيّاه. وسمعته لمّا عدنا إلى المسجد يقول: ما تجرَّعت جرعة أحبّ إليّ من جرعة غيظ لا أكافئ بها صاحبها.

ظلّت الصبيَّة مأخوذة بما تسمع، وتمتمت:

- هذه واللّه مواعظ الأنبياء.

راحت الفتاة تراقب والدها وهو يلج عالم الصلاة ويرفع كفَّين معروقتين إلى خالق السموات والأرضين، اللّه ربّ العالمين.

ارتفعت طرقات على الباب ... وخفّت الفتاة لتعرف الزائر ...

كانت النجوم قد اجتمعت في السماء؛ هتف الطارق:

- أنا عليّ بن الحسين.

صاح الشيخ في حجرته:

- واسوآتاه! ظنَّني مريضًا فجاء يعودني.

وانطلق الشيخ لاستقبال رجل ما على وجه الأرض شبيه له.

ملأت راحة الطيب فضاء البيت لكأنّ الربيع قد حلّ ضيفًا عندهم

همس السجّاد وقد أضاءت ابتسامة وجهه الحزين:

- أقلقني غيابك أبا خالد.

لم يجد الشيخ ما يقوله فنهض يقبّل جبين ضيفه العظيم.

ملأ رئتيه من عبير النبوّات. وهتف مأخوذًا:

- اللّه أعلم حيث يجعل رسالته.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣٨]

دمشق تصطخب بأسواق النخاسة وآلاف العذارى من أجناس بشريّة عديدة معروضة للبيع ونظرات جائعة مشتهية تتصفَّح وجوهًا جميلة يشوبُها السبي وحزن فراق الأحبّة.

فتيات من بلاد ما وراء النهر من «سمرقند» و«بخارى» وبربريات من «طنجة» و«القيروان» وحسناوات من «أرض روم» و«سوسنة» و... و....

وقد عبر طارق البحر تحمله سفن عربيّة وأُخرى «سبتيّة» فيرسو عند شواطئ جبل «كالبي» ويتخذ الجبل اسم الفاتح الجديد ... السفن تشقّ مياه المحيط فتفتح «الجزيرة الخضراء» ثمّ «قرطاجة» ثمّ تقتحم البرّ الأسبانيّ لتسقط «طليطلة» عاصمة الدولة القبطيّة، والخيول العربيّة تغسل أقدامها في شواطئ البوسفور. ودمشق تستقبل قوافل السبي

لتنضمَّ إلى أسواق النخاسة هنديّات لهنّ عيون المها.

قصر الخضراء يتألّق في غمرة القناديل المضيئة، فالمجد للسيف والحصان، وطبول الحرب.

كانت أنغام الموسيقى تفتن علية القوم، والنفوس نشوى تطير في عالم الخيال ... عالم يصنعه عصير شفّاف مشوب بحمرة رائقة تدبّ في الرؤوس كدبيب النمل ... فيغفو العقل وتحلّق النفوس في عوالم مسحورة زاخرة بالأوهام.

ولكنْ ما بالُ الخليفة هذه الليلة؟ ... يكاد يضيق بما حوله وبمن حوله ... ألا يعجبه منظر الجواري يرفلن بالحرير الملوّن ... وهذه الخمرة الرومية ورائحة الشواء ... وتلك الحلوى الفارسيّة؟

فغر الحاضرون أفواههم وقد سمعوا الخليفة يطلب مصحفًا، توقّفت الموسيقى عن إرسال أنغامها، وجمدت الجواري في أماكنها وساد القصر وجوم غريب.

جاء الحاجب يحمل مصحفًا مذهَّبًا مرصّعًا بالجواهر ووضعه بين يدي «الوليد».

فتح الرجل الذي لم تسكره الخمرة بعدُ، المصحفَ،

فوقعت عيناه على أوّل آية وصدح القرآن بصوت الحقّ «واستفتحوا وخاب كلّ جبارٍ عنيد».

شعر الوليد بأنّ الكلمات تغوص في أمعائه كسيوف حادّة ... ريح مجنونة تعصف برأسه. صرخ خليفة المسلمين:

- اصلبوه!

أمسك الجلاوزة بكتاب السماء ...

صلبوه إلى أسطوانة في وسط البلاط.

ها هو فرعون يسخر من موسى ... يلتفت إلى هامان:

- «فأوقد لي يا هامان على الطين، فاجعل لي صرحًا لعلّي أطّلع إلى إله موسى وإنّي لأظنّه كاذبًا».

وارتقى فرعون صرحًا عاليًا. حمل معه قوسه فلمَّا بلغ الذرى، وضع في كبد القوس سهمًا وأطلقه باتجاه السماوات!!

«الوليد» يضع في كبد القوس سهمًا ويسدّد باتجاه القرآن المصلوب، وتنهال السهام ... وتتناثر آيات القرآن فوق رخام البلاط ...

كان الوليد مفتونًا بما يفعل وهو ينشد بصوت يشبه فحيح الأفاعي:

تـهـدّد كـلّ جـبـار عنيد فهـا أنـا ذاك جبـار عنيـد
اذا لاقيت ربك يوم حشرٍ فقل يا ربّ مزّقني الوليد

في الصباح لبس الوليد ثياب الخلافة، ووقف يودّع أخاه «هشامًا» أميرًا على الموسم ... وابتعد الموكب عن أسوار دمشق في طريقه إلى الحجاز ولم ينس «الوليد» أن يدسّ معه رجالًا في مهمَّات سرِّيَّة ... يحملون معهم مُرَكَّبات مستحضَرة في القسطنطينيّة باهظة الثمن كان معاوية يحرص على استيرادها دائمًا.

غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٣٩]

قوافل الحجّاج تنساب في بطون الأودية، لكأنَّها تصغي إلى نداء إبراهيم؛ الكتل البشريّة تتدفّق صوب أوّل بيت وُضِع للناس، وموسم هذا العام موسم زحام بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ونسي الناس أو كادوا ذكريات حزينة، أو دفنوها في أعماق القلوب.

وتعلو في الآفاق نداءات الحرِّيَّة للإنسان عندما يعبد اللّه وحده، وتهتف الحناجر الآدميّة: لبَّيك اللّهمَّ لبَّيك ... لبَّيك لا شريك لك لَبَّيك ... إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ...

وتطفو الكعبة في بحر الأمواج البشرية وهي ترفل بثياب الحجّ البيضاء كحمائم السلام. وهنا يدرك الإنسان أن لا إله إلّا اللّه ... لا ربّ سواه وأنّ الناس سواسية لا فضل لعربيّ

على أعجميّ إلّا بالتقوى ... فيصغي المرء إلى كلمات اللّه وهي تتدفَّق في قلب الإنسان: «يا أيُّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم» فتتهاوى الحواجز، وتتلاشى الامتيازات، وتتمزّق الحجب، وإذا المسلم أخو المسلم حقًّا، وإذا القلوب تتطهّر من أدران الشرك.

كان «هشام بن عبد الملك» يطوف حول الكعبة لا يكترث له أحد ولا يهابه إنسان حوله رجاله من أهل الشام ...

بذل هشام كلّ ما بوسعه في استلام الحجر الأسود، ولكنّ الأمواج البشريَّة كانت تصدّه في كلّ مرّة فيرجع خائبًا.

بان الحنق في عينه الحولاء.

ألقى بنفسه على كرسيّ في ناحية من الحرم وجلس ينظر وينتظر انحسار الأمواج البشريّة؛ شعر بأنّه ليس شيئًا في هذا المكان، وبدا له الحجر الأسود بعيدًا ... بعيدًا جدًّا.

وأقبل رجل قد اجتاز الخمسين من السنين، وكان وجهه يُضيءُ كقمر بين الغيوم ... وحدث أمر عجيب. تناثرت أسئلة وارتسمت علامات استفهام. تساءل شاميٌّ وهو يتطلّع إلى رجل يرفل بحلّته البيضاء الناصعة نصاعة الثلوج

في جبال الشام.

- من هذا الرجل الذي ينفرج له الناس كملك عظيم؟!

وهتف بأصحابه:

- انظروا ... انظروا ... إنّه يشقّ طريقه بيسر إلى الحجر الأسود.

قبّل الرجل ذو الوجه المضيء الحجر الأسود واستأنفت الأمواج البشريّة تدافعها من جديد.

التفت الشاميُّ إلى خليفة المستقبل:

- من هذا؟!

ردّ الأحول بغيظ:

- لا أدري.

وحده القدر يفسّر مرور الشعراء في لحظات يتوقّف عندها التاريخ بإجلال.

هتف الفرزدق:

- ولكنّي أدري من هو.

تساءل الشاميُّ بشوق:

- ومن هو يا أبا فراس؟

فأنشد:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحِلّ والحَرَمُ

هذا ابن خير عباد اللّه كلّهم

هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العَلَمُ

هذا ابن فاطمة إن كنتَ جاهله

بجدّه أنبياء اللّه قد خُتِموا

إذا رأته قريش قال قائلها

إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يكاد يمسكه عِرفانَ راحته

ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم

وليس قولك من هذا بضائره

العُرْبُ تعرف من أنكرتَ والعجمُ

استشاط هشام حقدًا ... وبدت عينه الحولاء تتراقص في محجرها. وتخطفت الجلاوزة شاعرًا نفث روح القدس على لسانه ... وسيق الشاعر مخفورًا إلى السجن فهذا زمن مصنوع من خشب ونحاس ... زمن لا يعرف للكلمة حرمتها ... زمن غابت فيه الآيات وراء القضبان.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٤٠]

كانت الرياح شتائيّة باردة، والليل يغمر بظلمته المدينة.

الأزقّة مقفرة وقد أوى الناس إلى النوم، ما خلا بيوت متواضعة كان الضوء يرسل أشعته الواهنة من كوى صغيرة فيها؛ وخلف أبوابها كانت آذان تترقّب قدوم «صاحب الجراب».

تساءل «ابن شهاب» وهو يرى رجلًا يمرق في الظلام، كان الرجل ملثَّمًا ولكنّه عرفه؛ ولكنْ، ما دعاه إلى الخروج في هذه الساعة من الليل؟ كان «ابن شهاب» عائدًا من قصر «الوالي». هتف «الزهريّ»:

- يابن رسول اللّه! ما هذا؟!

عدّل «حامل الجراب» جرابه وأجاب:

- أريد سفرًا وهذا زادي.

تعجّب «ابن شهاب».

- دع غلامي يحمله عنك إذًا.

رفض «السجّاد» وحاول «الزهريّ» أن يأخذ الكيس عنه:

- دعني أحمله أنا ...

- إنّه زادي وأنا أحقُّ بحمله ... أسألك بحقّ اللّه أن تتركني وتمضي.

وغاب «صاحب الجراب» في زقاق مليءٍ بالليل والبرد.

عدّل من لثامه وطرق بابًا صغيرًا ووضع شيئًا ثمّ مضى ...

وتوقّف أمام بيت يكاد جداره أن ينهار. نقر على الباب وترك شيئًا على عتبته ثمّ استأنف طريقه في الأزقّة والبرد والظلام.

ومـرّت ساعات عاد بعدها «صاحب الجراب» بلا جراب، كانت النجوم تشتدُّ بريقًا في السماء وقد انفتحت نوافذ الملكوت.

ولج السجّاد محرابه ... وتدفَّق نبع من الصلاة فقد آن لقاء الحبيب مع محبوبه ... وانساب نهر من كلمات الإنسان وهو يشدو بحبّ بارئ الخليقة:

- إلهي، من ذا الذي ذاق حلاوة محبَّتك، فرام منك بدلًا؟

ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حِوَلًا؟

إلهي فاجعلنا ممّن اصطفيته لقربك وولايتك

وأخلصته لودّك ومحبّتك

وشوّقته إلى لقائك

ورضّيته بقضائك

ومنحته بالنظر إلى وجهك

وحبوته برضاك

وأعذته من هجرك وقلاك

وبوّأته مقعد الصدق في جوارك ...

السماء تكتظ بالنجوم وقد تكاثفت ظلمة الليل، فانطلقت

استغاثة قلب الإنسان عندما تنفتح أبواب الملكوت:

يا من أنوار قدسه لأبصار محبّيه رائقة!

وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة!

يا منى قلوب المشتاقين!

ويا غاية آمال المحبّين!

أسألك من حبِّك وحبِّ من يحبُّك!

وحبّ كلّ عمل يوصلني إلى قربك

وأن تجعلك أحبّ إليّ ممّا سواك

وأن تجعل حبّي إيّاك قائدًا إلى رضوانك

وشوقي إليك ذائدًا عن عصيانك

وامنن بالنظر إليك علَيّ

وانظر بعين الودّ والعطف إليّ

ولا تصرف عنّي وجهك

واجعلني من أهل السعادة والحظوة عندك

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

يا مجيب . يا أرحم الراحمين

العينان تسحّان الدموع ... دموع الحبّ الإلهيّ المفتون ... كسماء تمطر على هون ... تغسل الأشجار والأرض فتهتزّ وتربو ... والدمع يغسِلُ قلب الإنسان فيشرق بنور ربّه وينبض بالحبِّ والأمل والسلام.

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

[٤١]

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

- ماذا أرى؟

هتف الزهريُّ وقد وقعت عيناه على «السجّاد» بين المحراب والمنبر وأردف وهو يحثّ الخطى اليه:

- ألم يخبرني بأنّه على سفر؟!

أومأ مسلِّمًا وهتف:

- يابن رسول اللّه لست أرى لذلك السفر أثرا؟!

تمتم السجّاد بخشوع من أوشك على الرحيل عن الدنيا:

- بلى يا زهريّ ... ولكن ليس كما ظننت، إنَّما هو سفر الآخرة.

- والمتاع الذي كنت تحمل لم يكن غير صدقات للفقراء؟

وتمتم متأثِّرًا وهو يبتعد:

- نعم السفر سفرة الآخرة وخير الزاد التقوى.

انتحى الزهريّ زاوية من المسجد وكان ما يزال متأثِّرًا، قال صاحب له:

انّك لا تفتأ تذكر عليَّ بن الحسين بخير.

التفت الزهريُّ وقد شمّ رائحة تملّق.

- ويحك يا هذا! واللّه لم أرَ مثل عليّ بن الحسين ما حييت ... لقد رأيته مقيّدًا بالحديد وقد أحدق الحرّاس به يريدون إرساله إلى دمشق بأمر عبد الملك؛ فاستأذنتهم في وداعه فلم أملك نفسي عن البكاء فبكيت وقلت له: وددت أنّي مكانك وأنت سالم فرفع بصره إليّ وقال:

- يا زهريّ، أتظنّ أنَّ ما ترى عليّ وفي عنقي يكرثني، أما لو شئت لما كان، وإنّه ليذكِّرني عذاب اللّه ...

التفت الزهريّ إلى صاحبه وقال:

- أتصدّقني لو قلت لك لقد رأيته يخرج يديه وقدميه من القيود لكأنّها خيوط عنكبوت!!

فما مضت أربع ليال حتّى عاد الجنود يبحثون عنه في المدينة فسألت أحدهم عمّا حصل فقال: فقدناه ولم نعثر له على أثر ووجدنا القيود والأغلال في مكانه.

هتف الرجل:

- أمرٌ عجيب.

- وأعجب منه هو أنّي لمّا قدمت بعد ذلك على عبد الملك وأخبرته بما رأيت قال: لقد جاءني يوم فقده الحرّاس فدخل عليَّ وقال: ما أنا وأنت؟

فقلت له: أقم عندي في الرحب والسعة.

فقال: لا أحبّ، ثمّ خرج، فواللّه، لقد امتلأ قلبي منه رعبًا.

وحدّثني طاووس مرّة قال: رأيت رجلًا يصلّي في المسجد الحرام تحت الميزاب يدعو ويبكي، فجئته حين فرغ من الصلاة، فإذا هو عليّ بن الحسين فقلت له: يابن

رسول اللّه أتخاف ولك ثلاثة: أنت ابن رسول اللّه، وشفاعة جدّك ورحمة اللّه؟ فقال: يا طاووس، أمّا النسب فإنّ اللّه تعالى يقول: فلا أنساب بينهم يومئذٍ، وأمّا الشفاعة فإنَّ اللّه تعالى يقول: لا يشفعون إلّا لمن ارتضى. وأمّا رحمة اللّه فإنّ اللّه (عزَّ وجلَّ) يقول: إنّها قريبة من المحسنين. ولا أعلم أنّي محسن.

وأردف الزهريّ وهو ينهض للصلاة:

ولقد مضت عليه عشرون سنة وهو يبكي أباه ويقول:

إنَّما أشكو بثّي وحزني إلى اللّه، وأعلم من اللّه ما لا تعلمون. واللّه ما رأيت قرشيًّا أفضل من عليّ بن الحسين.

وتمرّ الساعات بطيئة، في ليلة تسمّرت النجوم في سمائها.

ولم تغمض عيون المدينة ... الرياح الباردة تجوس الأزقّة ... تعوي وهي تطرق الابواب ... والنوافذ.

حتّى إذا طلع الفجر ... سكن كلّ شيء، وقد انطفأت النجوم وانبعثت صرخة في قلب الغبش الرماديّ.

لقد رحل عليُّ بن الحسين؛ وعندها عرف الناس هويّة

الرجل الذي كان يجوبُ أزقّة المدينة في الليل ويهب الفقراء الفرحة والدفء والأمل.

ولمّا انثالت عليه المياه ... رأى الناس على ظهره مثل ركب الإبل.

سأل رجل مدهوشًا:

ما هذا؟

أجاب حفيد له:

لقد كان يحمل على ظهره جرابًا كلّ ليلة فيطوف حَوْلَ منازل الفقراء.

بكى رجلُ بمرارة. لقد رحل السلام، فالمدينة يلفّها برد وظلام ... وعامنا عام حزن.

كانت المدينة تبكي بصمت ... تبكي رحيل الأشياء الملوّنة. لم يبق منها سوى طيوف تحلّق في سماء الذكريات.

وفي دمشق تقام الأفراح ... والوليد الملك السعيد يتلقّى أنباء بهيجة ... فمملكته تتوسّع شرقًا وغربًا وكنوز المدن المقهورة تتدفَّق صوب دمشق؛ غير مكترث لما حلَّ بأنطاكية وقد دمّرتها الزلازل.

ولكنْ، هل يتوقّف التاريخ عند هذه النهاية؟!

«كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ...

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ...

وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ

يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ...

يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ...

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ...

وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ...

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ...

ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ...

فَٱدْخُلِى فِى عِبَدِى

وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ...».

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

أصداء صهيل في عاشوراء تدوّي في النفوس تنتزع من قلب الشتاء الربيع.. ومن رحم الموت الحياة، ومن أجل هذا كان علي لا يفتأ يبكي أباه.

كلمات
مداد للثقافة والإعلام
MIDAD cultural coordination
ISBN: 978-614-440-308-2
9 786144 403082
0 5 4 2 3 5 5 8 8 7